# حياة أبي عمران الفاسي ومناقبه

د. عبد الهادي حميتو

## ملخص البحث

يعتبر أبو عمران الفاسي أحد أعلام المدرسة المالكية في المغرب في المائة الرابعة من الهجرة وأول الخامسة، كما يعتبر رمزا حضاريا من رموز الوطن، وذلك بسبب مشروعه السياسي الذي انتهى بتوحيد المغرب والأندلس في الربع الأخير من المائة الخامسة.

ولد بفاس سنة (368هـ) ونشأ بها وأخذ مبادئ العلم بجامع القرويين، ثم رحل إلى القيروان، فدرس الفقه على أبي الحسن القابسي وغيره، ثم شد الرحال إلى الأندلس، فقرأ بها على أبي محمد الأصيلي، وسمع الحديث منه ومن جماعة، ثم عاد إلى فاس وتصدّر بها، إلى أن اضطره سوء الأحوال السياسية إلى النزوح عنها، فخرج إلى المشرق سنة (397هـ) وأخذ في طريقه عن علماء القيروان ومصر، ثم حجّ عدة حجج، وأخذ بمكة عمن لقي بها كأبي ذرّ الهروي، ثم دخل العراق وقرأ القراءات، ثم حج وعاد إلى القيروان، فتصدّر بها وداع صيته، وبها توفي سنة (430هـ)، ويقترن اسم أبي عمران بمشروعه السياسي الذي تشبع به تلامذته، ومنهم الفقيه وجّاج بن زلو اللمطي مؤسس (دار المرابطين) ببلدة نفّيس، الذي نفذ مشروع أبي عمران بانتدابه لتلميذه عبد الله ابن ياسين الجزولي في حركته التربوية والجهادية التي تكللت بقيام دولة المرابطين، وتوحيد أقطار المغرب والأندلس في كيان سياسي واحد في الربع الأخير من المائة الخامسة، رحم الله أبا عمران، وخلد ذكراه في الصالحين.

OOOOO

## الباحث في سطور

**الدكتور عبد الهادي حميتو** (hassanhmito@hotmail.com)
- أستاذ التعليم العالي بالمركز التربوي الجهوي بآسفي.
- عضو الرابطة المحمدية للعلماء.

**من أعماله المنشورة:**

1. قراءة الإمام نافع عند المغاربة من رواية أبي سعيد ورش، مقوماتها البنائية ومدارسها الأدائية إلى نهاية القرن العاشر الهجري.
2. معجم شيوخ الحافظ أبي عمرو الداني إمام القراء بالمغرب والأندلس.
3. معجم مؤلفات الحافظ أبي عمرو الداني (ت444هـ) إمام القراء بالأندلس والمغرب وبيان الموجود منها والمفقود.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وإياه نستهدي وبه نستعين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحابته أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

حضرات السادة والسيدات، أيها الإخوة والأخوات.

في إطار هذه الندوة العلمية المباركة التي دعا إليها مركز الدراسات والأبحاث بالرابطة المحمدية للعلماء نهوضا منه بجانب من جوانب الرسالة الدينية والتوجيهية والحضارية المنوطة به، وفي نطاق الموضوع المقترح للندوة، وهو تحت عنوان:

**«أبو عمران الفاسي حافظ المذهب المالكي بمناسبة الذكرى الألفية لوفاته»**

يسعدني بادئ ذي بدء أن أعبر عن بالغ سعادتي بالمشاركة مع إخواني الباحثين في محور من المحاور المقترحة للندوة، وهو محور «حياة أبي عمران الفاسي ومناقبه».

وإني لأغتنم أولا هذه الفرصة لتقديم التحية إلى السادة القائمين على مركز الدراسات والأبحاث بالرابطة، ولأهنئهم على هذه المبادرة الطيبة، ثم أهنئهم ثانيا على حسن اختيار الموضوع، وأعبر لهم عن بالغ الاغتباط بما أراهم قد وُفقوا إليه في إحياء ذكرى هذه الشخصية المغربية الفذّة التي يرجى أن تكون الرابطة المحمدية قد استفتحت بها ـ بعون الله ـ ميدانا فسيحا من ميادين البحث الرصين الذي ينسجم غاية الانسجام مع رسالتها التوجيهية، ويستجيب لتوجهاتها في خدمة تراثنا وقيمنا الحضارية، وإنها لفرصة سانحة لإبراز جملة من جوانب شخصية أبي عمران التي سنكتشف جميعا من خلالها أننا حقا بإزاء إمام داعية واعية، جليل القدر، بعيد الشَّأْوِ في الفضل، وأنه لم يكن فحسب واحدا من حفاظ المذهب المالكي المعتبرين، وإنما كان إلى جانب ذلك رمزا من رموزنا الحضارية والوحدوية، وأحد طلائع

نوابغ هذه البلاد الذين يرجع إليهم أكبر الفضل في تثبيت كيانها الحضاري، وتوطيد مجدها الاعتباري، ورسم مسارها التاريخي الذي تحركت فيه لبناء أركان وحدتها السياسية، وتشييد صرح نهضتها، الجامعة في رحابها بين الإطار القرآني، والتوجه الرباني، والطابع السني، والمذهب المالكي، والمنهج الإيماني، الواشج في وجدانها، المنتظم لمبادئها الإسلامية، والمنفتح على شتى آفاقها الإنسانية.

حضرات السادة والسيدات: من الأبيات المأثورة في تراثنا الأدبي الجارية مجرى الأمثال قول من قال:

وما زيّن الأرجاء إلا رجالُها ❊❊❊ وإلاّ فلا فضل لترب على ترب(1)

ولقد عني سلفنا الصالح بتدوين سير السابقين من رجالات الأمة وعلمائها وصلحائها وقادتها تخليدا لمآثرهم، وتنويها بأعمالهم، وتنبيها لطالبي المثل العليا على الاقتداء بهم. يقول الأديب المؤرخ أبو بكر محمد بن خميس المالقي الأندلسي في مقدمة كتابه "تاريخ مالقة" المنشور بعنوان "أعلام مالقة" مقررا لهذه المعاني: «إن أحسن ما يجب أن يعتنى به ويلمّ بجانبه بعد الكتاب والسنة، معرفة الأخبار، وتقييد المناقب والآثار، ففيها تذكرة بتقلب الدهر بأبنائه، وإعلام بما طرأ في سالف الأزمان من عجائبه وأنبائه، وتنبيه على أهل العلم الذين يجب أن تتبع آثارهم، وتدون مناقبهم وأخبارهم، ليكونوا كأنهم ماثلون بين عينيك مع الرجال، ومتصرفون ومخاطِبون لك

---

(1) هذه الرواية المشهورة للبيت، وقال أبو علي اليوسي في أول محاضراته (ص 49): «كان شيخنا الأستاذ المشارك الفاضل الناسك أبو بكر بن الحسن النطافي ينشدنا كثيرا في التنويه بالعلم قول القائل:

وما عرّف الأرجاء إلا رجالها ❊❊❊ وإلا فلا فضل لترب على ترب

قال: والمعنى أن القطر من الأرض وكذا المدينة والقرية تعرف وتشرف بنسبة المعروف إليها» .

في كل حال، ومعروفون بما هم به متصفون، فيتلو سورهم، من لم يعاين صورهم، ويشاهد محاسنهم من لم يعطِهِ السّنُّ أن يعاينهم، فتعرَف بذلك مراتبُهم ومناصبُهم، ويُعلم المتصرف منهم في المنقول والمفهوم، والمتميز في المحسوس والمرسوم، ويتحقّقَ منهم من كسته الآداب حلْيَها، وأرضعته الرياسة ثديها، فيجدَّ في الطلب ليلحَق بهم، ويتمسك بسببهم»[1].

وإن الدارس المتمعن في سيرة هذا العلم الفذّ الذي سوف نقف ههنا على جوانب من حياته وأطراف من مناقبه، سوف يرى أنه بإزاء واحد من أزكى من أنجبته هذه التربة المعطاء من نوابغ بلادنا وصدور علمائنا، هذا الفقيه الداعية البعيد النظر في فقه واقعه، والمخطط الحصيف لمستقبل وطنه، والعالم الذي دوّت شهرته في الآفاق، ووقع على جلالة قدره الاتفاق: أبو عمران الفاسي، أحد القمم الشوامخ، والنماذج البواذخ في تاريخ بلادنا ومنطقتنا في القرن الخامس الهجري، هذا الرجل الذي رسم مسار تاريخ منطقتنا بما وضعه مع فريقه من أئمة المدرسة المالكية في المغرب من برنامج تربوي ملهم، فأفضى في زمن قياسي إلى تحقيق مشروعه السياسي وكيانه الوحدوي، وكان فيه منهجه يمثل حجر الزاوية في هذا البنيان العظيم الذي تبلّج صبحه فأسفر عن قيام دولة المرابطين، كما أنه استطاع ترسيخ أصول وحدتنا الترابية التي ظلت منذ عهد الولاة في أعقاب الفتح أملا منشودا ظل يسعى إلى الجمع بين أطراف الوطن المغربي وبين عمقه الصحراوي الممتد في غربه وجنوبه وشرقه، ثم

(1) أعلام مالقة مقدمة التحقيق بقلم الدكتور عبد الله المرابط الترغي (ص46) نقلا عن كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ للحافظ شمس الدين السخاوي (ص25) ومن الملاحظ أن المحقق المذكور نقل هذه المقدمة المفروض أن تكون مقدمة كتاب تاريخ مالقة فيدخلها في مكانها من أول الكتاب، لكنه لم يفعل، واكتفى بالإشارة إلى وجودها في كتاب الإعلام للسخاوي المذكور.

انتهى إلى وحدة سياسية كاملة ما بين أقطار المغرب والأندلس، واستطاع أيضا أن يوقف الزحف الصليبي في الأندلس في حدودها الشمالية لعدة قرون، وأن يستوعب ويستقطب ما ترامى إلى داخل المغرب من تراث الفردوس المفقود ليشكل منه طرازا مغربيا مشتركا يمثل نتاج حقبة حضارية زاهية من تاريخ هذا الوطن المجيد.

فمن هو أبو عمران الفاسي، هذا الذي ندّعي له كل هذا الأثر في تاريخ منطقتنا، وما منزلته في زمنه، وكيف تعامل مع الواقع المتردي فيه، وكيف كانت صِلاته بمحيطه العلمي والسياسي والاجتماعي، وما مبادئ برنامجه التربوي، وكيف تحول إلى مشروع سياسي ونظام وكيان وحدوي؟ تلك هي الأسئلة التي تضعنا على الطريق لاستكشاف مجالات النبوغ ومظاهر الإنافة والتألق في حياة أبي عمران الحافلة التي سوف نقتصر منها على ما يتصل من قريب بهذا المحور، ونستهل ذلك بوقفة لتحقيق اسمه ونسبه وفصيلته ليكون ذلك مدخلا للحديث عن شخصيته.

## ☑ اسمه ونسبه وفصيلته:

أول ما يواجهه الباحث في ترجمة أبي عمران الفاسي هو شح المعلومات المتعلقة بفصيلته التي كانت تؤويه، وبتفاصيل حياته الأولية من مولده ومنشئه وأهل بيته، إذ بعض ما توافر من ذلك في المصادر مما هو مبثوث هنا وهناك قد تعرض لكثير من التصحيف والتحريف، مما يحتاج معه المتتبع إلى كثير من النباهة والحِذق سعيا منه إلى استخلاص الحقائق المطلوبة من بين ركام من التصحيفات والتحريفات، ونستهل ذلك بالنظر في ما طال اسم جده في المصادر من اختلاف المترجمين.

ففي سلسلة نسبه نقرأ في أقرب المصادرمن عصره قول القاضي عياض في ترجمته من كتاب "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك": «هو أبو عمران الفاسي واسمه: موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي قال: وغفجوم: فخذ من زناتة، وقال السمنطاري: من هوارة»[1].

وزاد أبو القاسم بن بشكوال في الصلة على قوله عن جده ابن أبي حاج فقال: «واسمه يَحُجُّ الغفجومي الفاسي»[2]، فأعاد الضمير في قوله "واسمه" على جده ابن أبي حاج، ولكن طائفة من المترجمين من أهل المشرق ظنوا أن الضمير يعود على أبي عمران نفسه، ومنهم ابن حجر العسقلاني في كتابه: "تبصير المنتبه وتحرير المشتبه" حيث قال: «ويَحُجُّ بفتح الياء وضمّ المهملة ثم جيم كالمضارع من الحج: أبو عمران موسى بن عيسى بن يحُج الفقيه القيرواني» ثم أكّد هذا الخطأ فقال: «وجده يكنّى أيضا أبا الحاج الفاسي عالم المغرب في زمنه»[3].

---

(1) ترتيب المدارك (7 / 243).

(2) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس (2 / 574).

(3) تبصير المنتبه في تحرير المشتبه (4 / 410).

ووقع في هذا الوهم أيضا الفيروزابادي فقال في القاموس: «ويحجّ الفاسي: أبو عمران موسى ابن أبي حاج: فقيه»[1].

وتبعهما الزبيدي في تاج العروس فقال: «ويحجّ بصيغة المضارع: الفاسي أبو عمران موسى بن أبي حاج، فقيه مالكي شارح المدونة وغيرها»[2].

وفي جذوة المقتبس للحُميْدي قال: «موسى بن عيسى بن أبي حاج نُجح الفاسي» فجعل نُجحا اسما لأبي حاج إلا أنه بالنون[3].

والتحريفات غير ما ذكرناه كثيرة في اسم أبي حاج، ففي الروض المعطار قال فيه "ابن حجّاج"[4] وفي الديباج لابن فرحون والأعلام للزركلي قال فيه "ابن أبي حجّاج"[5].

وفي دليل مؤرخ المغرب الأقصى لابن سودة: "موسى بن عيسى بن أبي الحاج" فذكره بالألف واللام[6].

وفي كتاب المعين في طبقات المحدثين عند الحافظ الذهبي جاء لفظه هكذا "موسى بن عيسى بن أبي رباح"[7].

---

(1) القاموس (1/ 182).

(2) تاج العروس (1/ 467).

(3) الجذوة (1/ 195).

(4) الروض المعطار (ص435).

(5) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (ص344) والأعلام للزركلي (7/ 326).

(6) دليل مؤرخ المغرب الأقصى (ص209).

(7) المعين (ص 126) ترجمة رقم (1396).

ولا شك عندنا أن هذه جميعا تصحيفات، والصواب فيها ما ذكره السمعاني في كتاب الأنساب وغيره حيث قال: «أبو عمران موسى بن عيسى بن يَحُج الفاسي قال: وكنية يَحُجُّ أبو حاج»[1] .

ويذكر عياض أبا عمران في بعض تراجمه فيكتفي بقوله "وابن أبي حاج"[2].

وأما قبيلته التي ينحدر منها فقد تقدم قول عياض فيه: "الغفجومي" قال: «وغفجوم: فخذ من زناتة، وقيل: من هوارة»، وضبطها ابن فرحون في الديباج بالغين المعجمة والفاء المفتوحة والجيم المضمومة[3].

لكن ياقوتا الحموي في معجم البلدان يقول فيها "غفجمون" ويذكر أنها قبيلة من البربر من هوارة من أرض المغرب، ولهم أرض تنسب إليهم، منهم أبو عمران موسى ابن عيسى محج بن أبي حاج بن وهم بن الخير الغفجومي[4].

وفي كتاب "معلمة المغرب" ومثله في معجم أعلام المغرب العربي للأستاذ عبدالوهاب بن منصور قال: «وأصله من غفجوم: أحد بطون قبيلة جراوة الزناتية»[5].

وقد وجدت الإمام البُرْزُلي في بعض المواضع من فتاويه يقول: «وقال أبو عمران الصنهاجي القيرواني» فينسب أبا عمران إلى صنهاجة[6]، وهذه نسبة غريبة؟

---

(1) الأنساب للسمعاني (4/ 338)، الإكمال لابن ماكولا (7/ 80)، واللُّباب في تهذيب الأنساب لأبي الحسن علي ابن أبي كرم الجزري (2/ 407).

(2) انظر ترجمة أبي إسحاق التونسي من ترتيب المدارك (8 / 58 ـ 59 ).

(3) الديباج المذهب (ص344).

(4) معجم البلدان ( 4 / 207).

(5) معلمة المغرب (18 / 6191)، ومعجم أعلام المغرب العربي (2 / 96 ).

(6) فتاوى البرزلي (1 / 221).

ولاشك في وجود تدافع واضح بين أن يكون أبو عمران تارة من زناتة أو من هوارة، وتارة من جراوة الزناتية، وتارة من صنهاجة، فلنأخذ إذن بما عليه الأكثر من قولهم فيه الغفجومي الزناتي كما عبر بذلك الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء[1].

أما مقر قبيلته الأصلية فالراجح أنه ببلاد تادلا، وقد استفدنا ذلك من قطعة هجائية ذكرها المقري في نفح الطيب وأزهار الرياض في ترجمة الشاعر المغربي الشهير أبي العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي (ت609هـ) يهجو فيها قومه بني غفجوم قال: وهم بربر بتادلا متوصلا بذلك إلى هجو أُصَلاء فاس بني الملجوم، ومستطردا بما هو في اطّراده كالماء السَّجوم، وهو قوله:

يا ابن السبيل إذا مررت بتادلا ... لا تنزلن على بني غفجوم
أرض أغار بها العدو فلن ترى ... إلا مجاوَبة الصدى للبوم
قوم طووا ذكر السماحة بينهم ... لكنهم نشروا لواء اللُّوم
يا ليتني من غيرهم ولو أنني ... من أرض فاس من بني الملجوم[2]

فهذه القطعة أفادتنا أن قبيلة بني غفجوم كانت مستوطنة بتادلا، كما أفادتنا بانتساب هذه القبيلة إلى جراوة بصرف النظر عن كونها من هوارة أو زناتة أو غيرها.

---

(1) سير أعلام النبلاء (17/ 945).
(2) انظر أزهار الرياض (2 / 365)، و نفح الطيب (3 / 17 ـ 257 )، والتكملة لابن الأبّار (1 / 112 ـ113) رقم الترجمة (323).

أما وصف أبي عمران بالفاسي فالظاهر أنه كان لقب شهرة اشتهر به بعد مغادرته لفاس في أثناء رحلته إلى القيروان، إذ لا يشتهر بفاس بذلك وهو ليس من أبناء فاس الأُصلاء، وإنما استوقفنا هذا الوصف بسبب ما تعرض له في المصادر من التصحيف أيضا، فقد كتب في بعضها "القرشي" بدلا من "الفاسي" ويبدو أن السبب في ذلك يرجع إلى قوة الشبه في الخط ما بين الكلمتين.

ففي كتاب "بيوتات فاس الكبرى" لإسماعيل بن الأحمر بتحقيق الأستاذ عبدالوهاب بن منصور نقرأ قوله معددا لهذه البيوتات: «منهم بيت بني أبي حاج القرشي المعروف بأبي عمران الفاسي»[1].

وتبعه في ذلك محقق كتاب "ذكر بعض مشاهير أهل فاس في القديم" للعلامة أبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي الفهري فقال المؤلف: «القرشي المعروف بأبي عمران الفاسي»، وقال محققه الدكتور خالد بن أحمد الصقلي تعليقا عليه: «ومنهم بيت بني حاج القرشيين»، قال: «وبيت بني حاج القرشيين المذكور انقرض عقبه اليوم»[2].

وتكرر هذا الخطأ عند الأستاذ عبد القادر زمامة في بحثه المنشور بمجلة البينة تحت عنوان "أبو عمران الغفجومي"، حيث نقل النص السابق لإسماعيل بن الأحمر ثم علق عليه بقوله: «فهذا النص الفريد في بابه يظهر لنا معالم من نسبه القرشي وبيته ذي الوجاهة والعلم والثراء في فاس»[3].

ولست أدري كيف يتصور أن يكون أبو عمران من غفجوم البربرية، ثم يكون مع ذلك ذا نسبة قرشية.

---

(1) بيوتات فاس الكبرى (ص44) رقم الترجمة (48).

(2) ذكر بعض مشاهير أهل فاس في القديم (ص26)، انظر التعليق رقم (92) في (ص91) من الكتاب.

(3) أبو عمران الغفجومي مجلة البينة (ص 66 ـ 67) السنة الأولى العدد الثالث محرم (1382هـ يوليوز1962م).

وسلك هذا المسلك نفسه محرر ترجمة أبي عمران الفاسي في "معلمة المغرب" فقال فيها: «أبو عمران موسىٰ بن عيسىٰ بن أبي حاج القرشي المعروف بأبي عمران الفاسي، قال: وأصله من غفجوم: أحد بطون قبيلة جراوة الزناتية»[1]، ووقع في كتاب مناهج التحصيل للرجراجي وصفه بالفارسي ـ بالراء ـ وهو تحريف لا شك فيه[2].

وهذه الأخطاء تتابع عليها عدد ممن كتبوا عن أبي عمران، فكان الأمر فيها كما قال في مثل ذلك أبو العلاء المعرِّي في لزومياته:

تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد *** بعدوىٰ فما أعدتنيَ الثؤباء

## ☑ موضع سلفه بفاس:

وأبو عمران من أسرة من البربر تنحدر من قبيلة غفجومة الزناتية، فلا علاقة لها أبدا بالنسبة القرشية، وبيت بني حاج من بيوتات الفاسيين لا القرشيين، ويبدو أن استقرارهم بفاس كان قبل ميلاد أبي عمران بزمن طويل كما يدلّ علىٰ ذلك ما وصفوا به في عدد من المصادر، كقول عياض: «وأصله من فاس، وبيته بها بيت مشهور، ويعرفون ببني أبي حاج، ولهم عقب، وفيهم نباهة إلىٰ الآن»[3].

وكقول ابن الأحمر في "بيوتات فاس": «ومنهم بيت بني أبي الحاج القرشيين، بيتهم بيت حسب وثروة وفقه وعلم وعدالة، ولهم زقاق بفاس يقال له: درب أبي حاج»[4].

---

(1) معلمة المغرب (18 / 6184).

(2) مناهج التحصيل (1/ 332 ).

(3) ترتيب المدارك (7 / 243).

(4) بيوتات فاس (44ـ45). ومثله في جذوة الإقتباس لابن القاضي (1/ 344 ـ 345).

وكقول العلامة سيدي عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي: «بيتهم بيت علم وثروة وفقه وعدالة، وتولى القضاء بعضهم بفاس في أيام لمتونة وفي غير فاس من المغرب»[1].

وكقول محققه الدكتور خالد الصقلي «إن الدرب المذكور الذي كان يسكنه أبو عمران مازال معروفا إلى اليوم وبنفس الاسم، قال: وهو من الأزقة التي تربط بين حي الطالعة الكبرى وحي باب العجيسة، كما لازالت تعرف إلى اليوم فيه سكنى أبي عمران المذكور»[2].

## ☑ مولد أبي عمران:

وقد اختلف أيضا في عام مولده على قولين مشهورين: الأول ذكره عياض وغيره قال: قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر «وُلدت مع أبي عمران موسى بن عيسى في سنة واحدة سنة ثمان وستين وثلاثمائة»[3].

والثاني قول الحافظ أبي عمرو الداني: مات أبو عمران وسنه خمس وستون سنة، ومات سنة ثلاثين وأربعمائة[4].

فعلى هذا يكون ميلاده عام ثلاثمائة وخمسة وستين، ولعلّ الأول أصح لقول ابن عبد البر: ولدت معه في سنة واحدة، لأنه مبني في الغالب على السماع من أبي عمران نفسه، إذ كان الحافظ ابن عبد البر قد صحبه في رحلته، وهو الذي دله على كبراء

---

(1) ذكر مشاهير بعض أهل فاس في القديم (ص26) ترجمة رقم (24).

(2) ذكر مشاهير بعض أهل فاس في القديم (ص92) ومثله في فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني (1/ 159).

(3) ترتيب المدارك (7 / 252 )، وبغية الملتمس للضبي (ص357) ترجمة (1322)، والصلة (2/ 577).

(4) ترتيب المدارك (7 / 252)، ومعالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لأبي زيد الدباغ (3 / 16).

شيوخه في قرطبة، فيكون أبو عمران علىٰ هذا القول قد عاش إثنتين وستين سنة، صرف قريبا من نصفها في النشأة وعهد الطلب في فاس وغيرها، وصرف الشطر الباقي منها في مدينة القيروان التي نزح إليها كما سوف نرىٰ[1].

## ☑ نشأته بفاس:

عاش أبو عمران طفولته وصدرا من شبيبته في مدينة فاس، إلا أننا لا نملك شيئا يعوَّل عليه عن أخبار أهل بيته فيما عدا ما تقدم مما ذكرناه من الشهرة لبيت أبي حاج وما وصفه عياض من حالهم في قوله: «ولهم عقب وفيهم نباهة» وقد كان عصر عياض قريبا من عصر أبي عمران، إذ لا يفصل ميلاده عن تاريخ وفاة أبي عمران إلا بضع وأربعون سنة، كما يدلنا قول ابن الأحمر عن أهل بيته: إنهم كانوا بيت حسب وثروة وفقه وعلم وعدالة، وكذلك قول سيدي عبد الرحمن الفاسي عنهم: «تولىٰ القضاء بعضهم بفاس في أيام لمتونة وفي غير فاس من المغرب»، علىٰ أنه نشأ في بيئة علمية هيأت له الظروف المناسبة للتنقل في مراحل التعليم المعتادة عند أهل المغرب في الجملة، وهي التي أشار إليها العلامة ابن خلدون في قوله:

(1) وأغرب من ذكر تاريخ اتصال يحيى بن إبراهيم الكدالي به في سنة (440 هـ)، في عودته من الحج (انظر تاريخ ابن خلدون: 1645، والبيان المغرب لابن عذاري المراكشي (4/ 7)، ولا يصح بحال ؛ لأن الحافظ أبا عمرو الداني أرخ لوفاته بدقة فقال: في 13 رمضان سنة (430 هـ)، وذكر هذا في كتاب طبقات القراء والمقرئين الذي أرخ فيه للقراء إلى عام (435هـ) كما ذكر الإمام اليافعي في مرآة الجنان. (انظر مرآة الجنان لليافعي: 5/ 182)، لاسيما وأن أبا عمرو الداني قد توفي بعد هذا التاريخ بقليل، أي سنة (444هـ). (انظر الصلة لابن بشكوال (2/ 385 ـ 387)، ترجمة رقم (876)، وغاية النهاية (1/ 503 ـ 505) ترجمة (2091) .

«فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار علىٰ تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه،لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، ـ قال ـ: وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرىٰ البربر أمم المغرب في ولدانهم إلىٰ أن يجاوزوا حد البلوغ إلىٰ الشبيبة، وكذا مذهبهم في الكبير إذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره، فهم لذلك أقوم علىٰ رسم القرآن وحفظه من سواهم»[1].

ولعلّ أبا عمران قد سلك به أهل بيته مسلك أهل الأمصار في ذلك، فحفظ القرآن برواية ورش عن نافع التي كانت يومئذ قد تم ترسيمها في الإقراء، ولا يبعد أن يكون قد قرأ بغيرها من الروايات، لأننا سوف نجده في رحلته إلىٰ المشرق يستكمل قراءة القرّاء السبعة بالعرض علىٰ كبار مشايخ القراءة، ولهذا ترجم له الحافظ أبو عمرو الداني في طبقات القراء والمقرئين، وترجم له الحافظ الذهبي في معرفة القراء الكبار، كما ترجم له الحافظ ابن الجزري في طبقات القراء[2].

والترتيب المنطقي المعتاد أن يكون أبو عمران قد انتظم بعد ذلك في الدراسة الرسمية، والتحق بجامع القرويين بفاس الذي كان في الربع الأخير من المائة الرابعة يعجُّ بالنشاط العلمي، وكان الفقه المالكي علىٰ رأس ما كان يدرس فيه علىٰ يد تلامذة الفقيه الجليل أبي ميمونة درّاس بن إسماعيل من أهل مدينة فاس الذي دخل الأندلس فأخذ عن جماعة من فقهائها، كما دخل القيروان ونزل بها علىٰ الفقيه ابن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة، «وكان درّاس ـ كما يصفه أبو الوليد بن الفرضي ـ

---

(1) مقدمة بن خلدون (ص538).

(2) كتاب معرفة القرّاء الكبار (1/ 389)، وغاية النهاية في طبقة القراء لابن الجزري (2 / 321 ـ322) رقم الترجمة (3691).

فقيها حافظا للرأي علىٰ مذهب مالك»[1]، كما كان أول من أدخل مدونة سحنون في الفقه إلىٰ فاس، كما أدخل كتب ابن أبي زيد المذكور، وقد زاره ابن أبي زيد بفاس قبل وفاته بها سنة سبع وخمسين وثلاثمائة[2].

## ☑ الأحوال السياسية بفاس لهذا العهد:

كانت فاس في الثلث الأخير من هذا القرن الذي ولد فيه أبو عمران تعيش فراغا سياسيا هائلا، وذلك بسبب انهيار الدولة الإدرسية بها ودخول المنطقة في صراع مرير بين العبيدين في إفريقية وبين العامريين خلفاء بني أمية في الأندلس، وفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة التي ولد فيها أبو عمران ملك علىٰ زناتة أول ملك منهم في المغرب، وهو زيري ابن عطية الزناتي المغراوي، فغلب علىٰ جميع بوادي المغرب، وملك مدينة فاس، وصيرها دار ملكه، وخطب فيها باسم الخليفة الأموي: هشام المؤيّد وحاجبه المنصور ابن أبي عامر، وبعث ببيعته إلىٰ الأندلس، فبعث إليه ابن أبي عامر بعهده علىٰ ما بيده من البلاد، ثم لم يلبث أن نازعه الإمارة عليها الأمير يدو بن يعلىٰ اليفرني، فزحف إلىٰ مدينة فاس واستولىٰ عليها سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة» وكان الأمير يدو بن يعلىٰ إذا غلب دخل مدينة فاس، وإذا هُزِمَ وغَلَبَ زيري بنُ عطية أخرجه عنها وملكها، وكانت الحرب بينهم سجالا، إلىٰ أن هزمه زيري، ودخل عليه فاسا عنوة فقتله ومثّل به، وذلك في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، وقوي أمر زيري ابن عطية بالمغرب، ولم يبق له منازع، وهابته الملوك، ثم لم يلبث أن فسد ما بينه وبين ابن أبي عامر فكانت بينه وبينه حروب قتل فيها من أشراف مغراوة المئات حتىٰ

---

(1) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (1/ 146).

(2) تنظر ترجمته في ترتيب المدارك (6 / 81 ـ 84)، كما ينظر خبر زيارة ابن أبي زيد له بفاس في كتاب: أبو عمران الفاسي من سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب لعبد الله كنون (ص 6).

استطاع ابن أبي عامر الاستيلاء على فاس سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فولى عليها ولده المظفر وعلى المغرب كله، وقُرِئ كتابه بذلك على منبر جامع القرويين.

ولما مات زيري بن عطية صالَحَ ابن أبي عامر ولده المعز بن زيري و ولاه على مدينة فاس وسائر أعمال المغرب ومدنه وبواديه، وذلك في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، فكان الأمر على ذلك إلى أن قامت الفتنة بالأندلس على رأس الأربعمائة فخلص الحكم في المغرب لزناتة[1].

في هذه الظروف التي كانت فيها مدينة فاس تعجُّ بالفتن، وتتعاورها التبعيّات، عاش أبو عمران الشطر الأول من حياته، ولا يبعد أن تكون رحلته الأولى إلى القيروان في طلب العلم وهو في نحو العشرين من العمر إنما كانت ناشئة عن اختلال الأمن بفاس، وعدم تمكنه من إتمام دراسته بها .

ويذكر أبو زيد الدباغ المالكي أن رحلة أبي عمران إلى القيروان قد تقدمت رحلته إلى الأندلس، وذلك إذ يقول: «تفقه بالقيروان على الشيخ أبي الحسن القابسي وغيره ـ يعني أبا بكر الزويلي وعلي بن أحمد اللّواتي السوسي ـ قال: ثم رحل إلى قرطبة، فقرأ على أبي محمد الأصيلي، وسعيد بن نصر، وعبد الوارث بن سفيان، وأحمد بن قاسم الأبزاري، ثم رحل إلى المشرق، وأخذ بمصر القراءات على أبي الحسن عبدالكريم بن أبي جدار، وأخذ بمكة عن أبي إسحاق عبيد الله بن محمد بن أحمد السرقسطي، ثم حجّ حجّات كثيرة، ودخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة»[2].

---

(1) انظر تاريخ هذه الأحداث في : الأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع (ص102 ـ 108) ـ والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي (1 / 231ـ 252)، وتاريخ ابن خلدون (ص1622).

(2) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لأبي زيد الدباغ (3 / 159 ـ 160)، رقم الترجمة (282) .

## ☑ سبب نزوحه عن مدينة فاس:

ولا شك أن أبا عمران كان قد تضلّع في الرواية بالقيروان بالملازمة الطويلة لشيخ القيروان أبي الحسن القابسي وغيره، ثم ازدادت قدمه رسوخا في هذا الشأن بسماعه من علماء الأندلس، قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: «وكان صاحبي عندهم، وأنا دللته عليهم»[1].

ولذلك فيبدو أنه لما عاد من رحلته الثانية إلى بلده فاس عاد محملا بهذا الرصيد العلمي الثخين من علوم الرواية، وكانت قبلته كرسي التدريس بالقرويين، ليزاحم عليه بالمناكب، ويزحزح عن الصدارة طائفة من المشايخ الذين ليست لهم في الرواية، ولا في لقاء الشيوخ منزلة تضاهي منزلته، ولذلك جاء أنه حين وصل إلى فاس «تصدر للإقراء بالقرويين، وأقبل على دروسه جمهور الطلاب، لِما أظهر من تبحر في العلوم، وتوفيق في الإلقاء والتفهيم، كما التف حوله أهل فاس من الخاصة والعامة، وصار مرجعهم في كافة شؤونهم، وموئلهم في المدلهمّات، وكان له صبر كبير على الإقراء، وقوة على العمل، ولمّا شاهد علماء وقته هذا النجاح الذي حصل عليه أبو عمران، وهذه المحبة التي تمتع بها من قبل أهل فاس، غاروا منه وحسدوه، وأخذوا يناوئونه، ويسعون في إذايته سرا، فقرر أن يهاجر من بلده ويقصد مدينة القيروان التي سبق له أن دخلها ودرس بها وشاهد من لطف أهلها ما حبب له المُقام بها»[2].

---

(1) الصلة لابن بشكوال (2 / 577).

(2) مجلة المناهل العدد 17 (1980م) ـ أبو عمران الفاسي والعلاقات العلمية بين المغرب وتونس (ص:152 ـ 153) للأستاذ محمد الفاسي رحمه الله.

ويذكر اسماعيل بن الأحمر في "بيوتات فاس الكبرىٰ" ما لعله يكون السبب المباشر لنزوح أبي عمران عن فاس، فإنه قال: «كان يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر وبسبب ذلك أخرجه من فاس الطغاة من أهلها العاملون عليها لمغراوة»[1].

وهناك رواية أخرىٰ تذكر أن أبا عمران أفتىٰ بتبديع جماعة كانوا يجتمعون في مسجد بُني بجبل فاس، كان يجتمع فيه أهل الزهد والعبادة فيقرأون القرآن، ويحكون حكايات الصالحين، وينشدون الأشعار الرقيقة، فقال أبو عمران: هذه بدعة لم تكن في الزمن الأول، ونهىٰ عن حضوره[2].

وهنا تبدأ الرحلة الثالثة لأبي عمران، ولكنها في هذه المرة كانت بنية الانزعاج والنزوح النهائي عن فاس والمغرب إلىٰ مدينة القيروان للمقام بها بصفة نهائية.

---

(1) بيوتات فاس (ص44)، رقم الترجمة (48)، وأبو عمران الغفجومي للأستاذ عبد القادر زمامة (ص66) السنة الأولى العدد الثالث (1382هـ - 1962م).

(2) ذكرها ابن فرحون في الديباج في ترجمة الحارث بن مسكين (ص107)، قال: «وهدم مسجداً كان قد بناه خراساني بين القبور بناحية المقطم في الصحراء وكان يجتمع فيه للقراءة والقصص والتعبير. قال: وبمثل هذا أفتى يحيى بن عمر في كل مسجد بني نائياً عن القرية حيث لا يصلي فيه أهل القرية وإنما يصلي فيه من ينتابه،وبذلك أفتى في مسجد السبت في القيروان، وبمثله أفتى أبو عمران في المسجد الذي بني في جبل فاس». انظر فتاوى البرزلي (2/ 38)، وأبو عمران الفاسي ضمن كتاب ذكريات مشاهير رجال المغرب لكنون (ص9 - 10).

## ☑مدينة القيروان في زمنه:

«كانت القيروان غداة احتل بها أبو عمران الفاسي ـ كما وصفها صاحب المعجِب من أهل القرن السابع ـ: دار العلم بالمغرب، إليها ينسب أكابر علمائه، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم»[1].

وكما قال عنها أبو عبد الله العبدري في رحلته: «وما كان حالها في القديم، إلا آية من آيات هذا الدين القويم ... وقد كان شأن القيروان، في غابر الزمان، بحيث لا يجهله إنسان، ولا يحصله لسان، حسبك ببلد وضعت الأوضاع في فضله، وملئت الأسماع من وصف وابِلِه وطلّه، مأوىٰ العلماء والصلحاء في حياتهم، وكفاتُهم بعد وفاتهم، بلد لا يناظَر به إقليم، ومتىٰ ذكر علماؤه فليس إلا التسليم»[2].

ولأبي القاسم الفزاري شاعر القيروان من قصيدة يذكر فيها هذه البلاد يقول فيها:

| | |
|---|---|
| وأنبت جلة العلماء فيها | بحار لا تعادلها بحور |
| ومنها سادة العلماء قدما | إذا عُدُّوا وليس لهم نظير |
| فهل للقيروان وساكنيها | عديل حين يفتخر الفَخور |
| عراق الشرق بغداد وهذي | عراق الغرب بينهما كثير |
| ولست أقيس بغدادا إليها | وكيف تقاس بالسنة الشهور[3] |

(1) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي(ص502) .

(2) الرحلة المغربية لأبي عبد الله العبدري (ص64).

(3) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية لأبي بكر عبد الله بن محمد المالكي (1/ 492).

وقد كانت الحركة العلمية والفقهية في إفريقية والقيروان في أوج ازدهارها ابتداء من عصر فقيهها عبد السلام بن سعيد التنوخي المعروف بسحنون(ت240 هـ) وانتهاء إلى تمام المائة الرابعة الذي عاد فيه أبو عمران من رحلته المشرقية سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ليقيم بها ويتصدر للتدريس.

وقد لاحظ العلامة محمد الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ في كتابه القيم: "أليس الصبح بقريب" أن الحركة العلمية بالقيروان ظلت تتنامى بتلقائية عجيبة دون تدخل من السلطان قال: «ومن العجب أنَّ تقدم العلوم بإفريقية والقيروان كان من تلقاء طلبة العلم، لولعهم به، ولم يكن من همة الأمراء في شيء كما كان بالشرق والأندلس، ولقد كانت القيروان آهلة بالعلوم، فكانت فيها العلوم الشرعية والعربية والأدبية والتاريخية والطب، ولا يعرف لأهل القيروان اشتغال بالفلسفة، وكانت بقية العلوم الرياضية ضعيفة في القيروان، وأشهر عنايتهم إنما كانت بعلوم الشريعة»[(1)].

## ☑ بيت أبي عمران بالقيروان:

والآن وقد أوفى أبو عمران على الثلاثين عاما، وعاد من رحلته العلمية مليئَ الحوصلة من شتى أنواع العلوم، فقد آن له بعد أن قرر الإقامة بالقيروان بعد العودة أن يتأهل ويقيم أسرة وينشئ بيتا، وتفاصيل ذلك غائبة عنا، ولكننا من خلال ما سنذكره من قصص وأخبار ندرك أنه كانت له دار بالقيروان بقرب السماط[(2)]، وأنه

---

(1) أليس الصبح بقريب (ص63ـ64) .

(2) معالم الإيمان (3 / 162).

«كان يجلس للمذاكرة والسماع في داره من غدوة إلى الظهر»[1] وأنه أنكر على يهودي أن يدخل داره ووبخه بقوله: أما علمت أن داري كمسجدي»[2].

كما عرفنا أيضا أنه كانت له زوجة وابنة وابن كان يدعى عيسى، وهم كانوا ورثته من بعده[3].

## ☑ تصدره للإقراء:

ويظهر أن أبا عمران لم يرد أن يزاحم الفقهاء أصحاب النفوذ في جامع القيروان في مجالسهم الفقهية، ولذلك اكتفى أولا بإقراء القرآن، وكان ذلك في حياة شيخه أبي الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي وقبل وفاته سنة (403هـ)، وإلى هذه المرحلة من تصدره يشير رفيقه في الرحلة إلى المشرق الإمام الحافظ أبو عمرو الداني بقوله: «كتب معنا بالقيروان وبمصر ومكة، وتوجه إلى بغداد،وأنا بمكة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وأقام أشهرا، وقرأ بها القرآن وسمع الحروف، وكتب عن جماعة من محدثيها حديثا منثورا، وشاهد مجلس القاضي الإمام أبي بكر محمد بن الطيب ـ يعني الباقلاني ـ قال: ثم انصرف إلى القيروان، وأقرأ الناس بها مدة، ثم ترك الإقراء ودارس الفقه، وأسمع الحديث إلى أن توفي»[4].

---

(1) معالم الإيمان (3 / 160) .

(2) نفسه (3 / 161).

(3) معالم الإيمان (3 / 163) .

(4) غاية النهاية (2 / 321 ـ 322) رقم الترجمة (3692) .

## ☑ إمامته وآراء العلماء فيه:

ولا شك أن الاعتماد في تقدير أوزان العلماء إنما يكون على اعتبار هذين المعيارين: «الأول منهما: النظر فيما خلفوه من آثار، وهذا له محور غير هذا المحور.

والثاني: شهادة العلماء وتزكيتهم، وهذا هو الذي نقتطف فيه من أقوال المترجمين له وغيرهم ما يكون مرآة لإشعاعه وترامي أصداء شهرته، ومقدار ما أصابه من نجاح في ميدانه وذيوع صيته، وأول ما يدل على سعة مجاله في فنون العلم تعدد المجالات التي ترجم له فيها، إذ هو مترجم في القراء والمحدثين، والفقهاء، والمالكية، والأعلام الذين دخلوا الأندلس، وأعلام من حلّ بمدينة فاس، وصلحاء القيروان، وأصحاب الفهارس العلمية، وأصحاب البيوتات الكبرى، وأعلام النبلاء، ورجال التصوف وغير ذلك، وقد تنوعت عبارات المترجمين في الدلالة على إمامته وعلو شأنه، فقال عياض في ترتيب المدارك: «فلم يزل إماما بالمغرب، أخذ عنه الناس، وتفقه عليه جماعة كثيرة ممن ذكرنا في أصحاب أبي بكر وغيرهم، كعتيق السوسي، وأبي محمد الفحصيلي، ومحمد بن طاهر بن طاوس، وجماعة من الفاسيين والسبتيين والأندلسيين، فطارت فتاويه بالمشرق والمغرب، واعتنى الناس بقوله، وكان يجلس للمذاكرة والسماع في داره من غدوة إلى الظهر، فلا يتكلم بشيء إلا كتب عنه إلى أن مات ـ رحمه الله ـ»[1].

وقال الحميدي في الجذوة: «أبو عمران الفاسي فقيه القيروان، إمام في وقته، قال: وكان مكثرا عالما نزل القيروان، و بها مات»[2].

---

(1) ترتيب المدارك (7 / 245).

(2) جذوة المقتبس للحميدي (ص303 ـ 304) رقم الترجمة (791).

وقال ابن بشكوال في كتاب الصلة: «ذكره أبو القاسم حاتم بن محمد وقال: لقيته بالقيروان في رحلتي سنة إثنتين وأربعمائة، وكان من أحفظ الناس وأعلمهم، وكان قد جمع حفظ المذهب المالكي، وحفظ حديث النبي عليه السلام، والمعرفة بمعانيه، وكان يقرِأ القرآن بالسبعة ويجودها، مع المعرفة بالرجال والمعدَّلين منهم والمجَرَّحين، رحل إلى بغداد، وحجّ حِججا، تركته حيا، وعاش إلى أن توفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة»[1].

وقال ابن عمار الميورقي في رسالته: «كان إماما في كل علم، نافذا في علم الأصول، مقطوعا بفضله وإمامته، ولما دخل بغداد شاع أن فقيها من أهل المغرب مالكيا قدم، فقال الناس: لسنا نراه إلا عند القاضي أبي بكر الباقلاني ـ وهو إذ ذاك شيخ المالكية بالعراق وإمام الناس، فنهض من أهل بغداد جماعة لمجلس القاضي أبي بكر، ومعه أصحابه وأبو عمران، وجرت مسائل حتى استأنسوا، ثم سأله رجل شافعي عن مسألة من الاستحقاق، فأجابه أبو عمران بجواب صحيح مجرد، فطالبه السائل بالحجة عليه، فأطرق الشيخ أبو عمران، فرفع رأسه شابٌّ من أهل بغداد من المالكية، فقال للسائل: أصلحك الله، هذا شيخ من كبار شيوخنا، ومن الجفاء أن تكلفه المناظرة من أول وهلة، ولكن أنا أخدمه في نصرة هذه المسألة، وأنوب عنه فيها... »[2].

قال عياض: «وذكره أبو عمرو المقرئ ـ يعني الداني ـ في كتابه ـ يعني طبقات القرّاء ـ فقال: قرأ القرآن على أبي الحسن علي بن عمر الحمّامي، وأقرأ القرآت

(1) الصلة (2 / 577 ـ 578)، رقم الترجمة (1337)، وقد تقدم أن وفاته على التحقيق في 13 رمضان سنة (430هـ).

(2) ترتيب المدارك (7 / 246 ـ 248).

بالقيروان مدة، ولما ورد القيروان وجلس بها وبان علمه، قال كبار أصحاب أبي بكر ابن عبد الرحمن: نسير إليه، وقالوا: إنه يعَزُّ علىٰ شيخنا ذلك، وتراوضوا في الحضور عنده، ثم عزموا علىٰ ذلك وقالوا: إنه لا يحل لنا التخلف عن مثله، فأسخطوا شيخهم، حتىٰ يحكىٰ أنه دعا عليهم وهجرهم»[1].

قال عياض: وقال عمر الصقلي: أبو عمران الثقة الإمام الدَّيِّن المعلم، وذكر أن الباقلاني كان يعجبه حفظه ويقول له: «لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبدالوهاب ابن نصر البغدادي ـ وكان إذ ذاك بالموصل ـ لاجتمع فيها علم مالك: أنت تحفظه، وهو ينصره، لو رآكما مالك لسرّ بكما»[2].

وقال ابن عميرة الضبي في بغية الملتمس: «أبو عمران الفاسي فقيه القيروان، إمام وقته، وكان مكثرا عالما، نزل القيروان، وحدّث بها، واشتهر ذكره، وانتشر علمه»[3].

وقال أبو زيد الدباغ في معالم الإيمان: «كان فقيها عالما بفنون العلم، منها القرآن وعلومه، والحديث وعلله ورجاله، والفقه البارع، مع الورع التام، والهيبة والوقار والسكينة، قليل الضحك، عارفا بأصول الدين»[4].

وقال الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء: «أبو عمران الفاسي الإمام الكبير العلامة، عالم القيروان المالكي، أحد الأعلام، تخرّج بهذا الإمام خلق من الفقهاء والعلماء»[5].

---

(1) ترتيب المدارك (7 / 248).
(2) ترتيب المدارك (7 / 246).
(3) بغية الملتمس لأحمد بن عميرة الضبي (ص 457) رقم الترجمة (1332).
(4) معالم الإيمان (3 / 160) رقم الترجمة (282).
(5) سير أعلام النبلاء (17 / 545).

وقال الذهبي أيضا في العبر: «كان إماما في القراءات،بصيرا في الحديث، رأسا في الفقه، تخرج به خلق في المذهب»[1].

وقال ابن الزيات التادلي في التشوّف: «وكان مقدما في الفضل والإمامة»[2].

وقال محرر ترجمته في "معلمة المغرب": «عاد إلى القيروان واستقر بها حيث آلت إليه بها رئاسة العلم، فرحل إليه الطلبة من المغرب والأندلس: من فاس وأغمات وسوس وسرقسطة وإشبيلية ووشقة وبجانة وألمرية وطليطلة وقرطبة وصقلية، واشتهر بالفقه واقتنائه وتدريسه وخطابته، وحصل على إجازته أعلام مشهورون لم يلقوه، وأشاد بفضله وعلمه وإمامته العديد من علماء عصره، والمشارقة منهم على وجه الخصوص»[3].

## ☑ مسائل أبي عمران ومناظراته:

لم يكن أبو عمران فقيها مدرسا فحسب، ولكنه كان أيضا نظّارا ومتكلما وعالما بمسائل الوفاق والخلاف، ولقد كانت ترد عليه المسائل العويصة، أو ترد على ملك عصره المعز بن باديس فيعرضها عليه وعلى غيره من علماء القيروان، وكان هؤلاء السائلون كأنما كانوا يمتحنون هؤلاء العلماء، إما بصورة مباشرة، وإما بوساطة من الأمير.

ومن أمثلة هذه المسائل ما ذكره الحافظ ابن الأبّار في التكملة في ترجمة أحمد بن الحسن الغسّاني المعروف بابن أبي ريّال حيث قال: «ولي قضاء دانية لمجاهد العامري،

---

(1) العبر (2 / 363 ـ 364).
(2) التشوّف إلى رجال التصوف، رقم الترجمة (4).
(3) معلمة المغرب (18 ـ 6184).

وأشخصه مع ابنه علي الملقب بإقبال الدولة إلى القيروان في أيام المعز بن باديس الصنهاجي، فلقي هناك أبا عمران الفاسي وطبقته، وجرت له معهم مساءلات، على أن مجاهدا كان قد نهاه عن مداخلتهم والاختلاط بهم، فوضع مائة مسألة في فنون شتى سألهم عنها، وكتبها في دفتر، وترك بين كل مسألتين بياضا للجواب، أولاها في سيادة فاطمة أخواتها ـ رضي الله عنهنّ ـ قال ابن الأبّار: وكان فقيها نظّارا له حظ من الأدب والشعر، وهو أحد شيوخ المقرئ أبي داود سليمان بن نجاح، حدّث عنه بتلك المسائل المائة»[1].

ومن المسائل التي عرضت على أبي عمران واختلف فيها مع غيره مسألة الملاعنة. قال عياض في ترجمة أبي علي بن خلدون من فقهاء إفريقية وعلمائها وصلحائها: «نزلت بالقيروان مسألة الملاعِنة إذا نكلت ثم أرادت الرجوع إلى اللِّعان، فاختلفنا فيها، فأفتى فيها أبو علي بن خلدون وغيره أن لها ذلك، كما لها الرجوع بالإقرار المحض، وهو قول أبي بكر ابن عبد الرحمن، وذهب أبو القاسم ابن الكاتب إلى أن الرجم قد وجب عليها، وليس لها الرجوع بعد النكول... قال عياض: وبه قال أبو عمران قال: ولابن الكاتب في ذلك تأليف طويل نصر فيه فتياه، وبين وجه قوله»[2].

وأبو القاسم ابن الكاتب المذكور هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الكناني القيرواني المعروف بابن الكاتب، قال عياض: «من فقهاء القيروان المشاهير وحذاقهم»، ثم حكى عن ابن سعدون قوله: «سمعت بعض شيوخنا يحكي أنه ناظر الفقيه أبا عمران مرة، وطالت بينهما المناظرة حتى علا العرق أبا عمران، وبلّ قميصه ورداءه، وصار

(1) التكملة لكتاب الصلة (1/ 24 ـ 52)، رقم الترجمة (55).
(2) ترتيب المدارك (7 / 104 ـ 105).

كمن غمسه في ماء، وبينهما في ذلك خلاف ونزاع ومراجعة في مسائل مشهورة في الفقه نحو مائة وخمسين جزءا»[1].

## ☑ أثر المنافسة على منبر الفتوى في إذكاء مسائل الخلاف:

لم تكن هذه المناظرات إذا تعمقتها ذات صبغة فقهية محضة، وإنما كانت تمثل صراعا داخليا محتدما على النفوذ العلمي في الساحة في افريقية والقيروان، وهذا أمر طبيعي هو نتاج المنافسة والشهرة، وقد حدث بين كبراء فقهاء المالكية كثير منه، ومنه ما حدث بين الفقيهين الجليلين بالقيروان: سحنون بن سعيد وأسد بن الفرات في قصة دخول مدونة ابن القاسم وروايتها عنه، وهو أمر مشهور، وكذلك كانت الحال في الأندلس أيضا، وقد حكى عياض في ترجمة أبي محمد الأصيلي شيخ أبي عمران أنه «حدث بينه وبين ابن زَرب القاضي وأصحابه مشاحنة أثارتها النفاسة وعلو كعب الأصيلي في العلم، وإزراؤه عليهم، فأراد ابن أبي عامر إصلاح حالهم بتفريقهم، فقلّد الأصيلي قضاء سرقسطة، فدارت بين الأصيلي وواليها (بيْد) مولى ابن أبي عامر منافسة ومحاربة، لأشياء أنكرها عليه الأصيلي، قال: وكان في خُلق الأصيلي حرج وزعارة، فاستعفى من القضاء فعوفي»[2].

ووجود منافسين وحساد لأمثال هؤلاء الأماثل من العلماء ليس بالنادر الوقوع، بل هو أمر شائع أبدى فيه الأدباء وأعادوا كقول من قال:

(1) ترتيب المدارك (7 / 252 ـ 253).

(2) ترتيب المدارك (7 / 142).

إن العــرانين تلقـــاها محـسَّـــدة *** ولن تـرىٰ للئـام النـاس حـسّادا[1]

وقول الآخر:

حسدوا الفتىٰ إذ لم ينـالوا سـعيه    فالنـــاس أعـــداء لـــه وخـــصوم

كـضرائر الحـسناء قلـن لوجههـا    حـــسدا وبغيـــا إنـــه لدميـــم[2]

وأبو عمران لا ينتظر أن يكون استثناء من هذه القاعدة، فقد رأينا عقـارب الـسوء تَدِبُّ إليه حتىٰ تضطره إلىٰ النزوح عن فاس، ثم تكرر المشهد نفسه لما نزل بـالقيروان، وسبب ذلك أنه «لما ورد القيروان وجلس بها وبان علمه، قال أصـحاب أبي بكـر بـن عبد الرحمن: نسير إليه، وقالوا إنه يعَزُّ عـلىٰ شـيخنا ذلـك، وتراوضـوا عـلىٰ الحـضور عنده، ثم عزموا علىٰ ذلك وقالوا: إنه لا يحلّ لنا التخلّف عن مثله، فأسخطوا شيخهم حتىٰ يحكىٰ أنه دعا عليهم وهجرهم»[3].

وأبو بكر بن عبد الرحمن هذا الذي كان ينفس علىٰ أبي عمران مزاحمته له علىٰ الجاه في البلد هو ـ كمـا جاء في ترجمته ـ فقيه جليل من شـاكلة أبي عمـران الفـاسي علمـــا وعملا، قال عياض في ترجمته: «من أهل القيروان وشيخ فقهائها في وقته مـع صـاحبه أبي عمران الفاسي، وكان أبو بكر فقيها حافظا ديّنا، تفقه بأبي محمـد بـن أبي زيـد وأبي

(1) من شعر المغيرة بـن حبنـاء التميمـي يمـدح آل المهلـب بـن أبي صـفرة . ينظـر معجـم الـشعراء للمرزبـاني (ص339).

(2) البيتان مـن قـصيدة طويلـة لأبي الأسـود. ينظـر ديوانـه (ص: 54) وكتـاب فـصل المقـال في شرح كتـاب الأمثال لأبي عبيد البكري (ص 45).

(3) ترتيب المدارك (7 / 248)، ومعالم الإيمـان (3 / 161).

الحسن القابسي، وسمع منهما ومن غيرهما من شيوخ إفريقية وغيرها، وتفقه عليه خلق كثير، قال: وصار الذكر ورئاسة الدين في وقته له مع صاحبه ـ يعني أبا عمران الفاسي ـ في المغرب بأسره حتىٰ لم يكن لأحد معهما اسم يعرف، وكان الذي بينهما متباعدا جدا، حتىٰ طمع بذلك صاحب إفريقية ـ يعني المعز بن باديس ـ ليجد الحجة علىٰ العامة بشهادة أحدهما علىٰ الآخر، إذ كانت العامة طوعَهما، فلما اختبرهما في ذلك لم يجد عندهما ما يوافقه، ووجد ما بينهما أمتن مما يظن»[1].

وكان أبو بكر بن عبد الرحمن قد لزم الشيخ أبا الحسن القابسي وانقطع إليه، حتىٰ لم يكن في أصحابه مثله، وأباح له أبو الحسن الفتيا في حياته، وعرض عليه أن يقاسمه في جميع ما يملكه فامتنع، وقد انتفع به الناس، وكان أصحابه نحو المائة والعشرين كلهم أئمة يقتدىٰ بهم[2].

قال عياض: «وحاز الذكر ورئاسة الدين في وقته مع صاحبه أبي عمران»[3].

وأصابع التحريش بينهما بادية فيما كان يقوم به الأمير، فقد ذكر أبو زيد الدباغ «أن أبا بكر بن عبد الرحمن قال يوما للمعز بن باديس ـ وقد أراد أن يبعثه رسولا إلىٰ صقلية ـ والله إن أقلامنا لأمضىٰ عند الله من رماحك، قال: ودسّ إليه المعز يوما من كتب سؤالا نصه: ما يقول الفقيه في هذه الطرز التي فيها أسماء بني عبيد مثل الظاهر والحاكم وغيرهما مما يلبس: أيصلىٰ فيها؟ فكتب الشيخ أبو بكر بن عبد الرحمن جوابا: هذا سؤال أحمق أخرق قليل المعرفة، وكتب الشيخ أبو عمران الفاسي جوابا عن هذا السؤال: إنما يجب علىٰ من بسط الله يده أن يمنع من ذلك قال: فشق علىٰ

(1) ترتيب المدارك (7 / 239 ـ 240).

(2) انظر معالم الإيمان (3 / 165 ـ 166).

(3) ترتيب المدارك:(7 / 240).

السلطان جواب الشيخ أبي بكر، فأرسل إليه وإلى الشيخ أبي عمران، فقال للشيخ أبي بكر: لم أجبت بهذا؟ فقال: لأن السكة تضرب بأسمائهم، وبنودهم تخفق على رأسك، فقال السلطان: ما أبقيت السكة والبنود إلا مداراة لأجل حجّاج بيت الله الحرام والمسافرين... قال: ثم عطف عليه الشيخ أبو عمران وقال للسلطان: لِمَ لَمْ تكتب بمنع ذلك؟ قال الدباغ: «فالشيخ أبو عمران أعان بكلامه هذا أبا بكر، ولذلك قيل: كان ما بينهما متباعدا جدا،حتى طمع بذلك المعز فيهما»[1].

وقد اشتهر في القيروان وغيرها ما كان بين هذين العالمين من التباعد مع جلالة قدرهما، حتى ذكر أبو زيد الدباغ أن أبا حفص ابن الشامي المتعبد قال: «كان بيني وبين الشيخ أبي عمران الفاسي اختصاص ومودة، وكان له في قلبي موضع عظيم من الجلالة لعلمه وفضله ودينه، ثم نظرت إلى الشيخ أبي بكر بن عبد الرحمن، فرأيته شيخا جليل القدر، فبقيت متعجبا من اختلافهما، فرأيت ليلة من الليالي في المنام قائلا يقول: ابن عبد الرحمن من الموفقين، ابن عبد الرحمن من الأبرار، ابن عبد الرحمن من المجتهدين»[2].

وذكر الحميدي في الجذوة في رسم أبي العباس أحمد بن شهيد الكاتب الأندلسي أنه: «بلغ من رئاسة الدنيا أرفع منزلة، وقدّمه الأمير الموفق أبو الجيش مجاهد بن عبدالله العامري على كل من في دولته لأسباب أكدت ذلك عنده، من المودة والثقة والنصيحة والصحبة في النشأة، وأنه كان يشتغل بالفقه والحديث، ويجمع العلماء والصالحين و يؤثرهم، ويصلح الأمور جهده، وما رأينا من أهل الرياسة من يجري مجراه، قال: وله رسائل مجموعة متداولة، منها الرسالة إلى أبي عمران موسى بن عيسى

---

(1) معالم الإيمان (3 / 167 ـ 168).

(2) معالم الإيمان (3 / 168 ـ 169).

ابن أبي حاج الفاسي، وأبي بكر بن عبد الرحمن فقيهي القيروان في الإصلاح بينهما»[1].

ولقد كان من أسباب التباعد بينهما أن المسائل المذكورة كانت ترد عليهما معا في وقت واحد، فكانت الأجوبة ربما جاءت متعارضة، ومن أمثلة ذلك ما ذكره العلامة محمد بن مسعود الطرنباطي الفاسي (ت 1214هـ) في كتابه: بلوغ أقصىٰ المرام في شرف العلم وما يتعلق به من الأحكام قال: «واختلف قول مالك ـ رحمه الله ـ في أفضلية الاشتغال بالعلم علىٰ صلاة النافلة فقال في سماع ابن القاسم: الصلاة أحب، وقال في سماع أشهب وابن أبي أويس وابن وهب: طلب العلم أفضل، وقال أبو بكر بن عبد الرحمن: أما صلاة الليل فهي أفضل، وأما صلاة النهار فطلب العلم أفضل منها لمن كان فيه رجاء لموضع الإمامة.

وقال أبو عمران الفاسي: المعول عليه من ذلك ما كان عليه السلف الصالح: أنهم مواظبون علىٰ نصيبهم من التعبد، وقال ابن وهب: كنت عند مالك فحانت صلاة الظهر أو العصر وأنا أقرأ عليه، فجمعت كتابي، فقال: إن هذا لعجب: ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي كنت فيه إذا صلحت فيه النية، قال بعض الشيوخ: يعني: ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي قمت عنه، لأن الصلاة لا يتعين وجوبها بأول الوقت»[2].

ومن صور تباينهما أيضا ما ذكره عياض في رسم القاضي عبد الوهاب البغدادي حيث قال: «ولما وصل مصر ونيته الغرب، فوُصِف له، فزهد فيه، وخاطبه ابنا الشيخ

(1) جذوة المقتبس (ص108).
(2) بلوغ أقصى المرام (ص263 ـ 264).

أبي محمد بن أبي زيد ـ وقد انعقد بينه وبينهم وصلة بسبب شرحه تواليف أبيهم ـ ووصلوه بمال لم يرضه، واستدعوه للدخول إلى الغرب، قال: وكان خاطب فقهاء القيروان في الوصول إليها، فرغّبه في ذلك أبو عمران، وكسره عنه أبو بكر بن عبدالرحمن»[1].

هذا ولقد اشترك هذان الإمامان في تخريج جماعة من أئمة الفقه معتبرين في إفريقية والقيروان، منهم أبو القاسم السّيوري[2]، وأبو الطيب الكندي المعروف بابن بنت خلدون[3]، وأبو القاسم عبد الرحمن بن محرز[4]، وأبو محمد عبد الحميد المعروف بابن الصائغ[5]، وأبو محمد التميمي المعروف بابن عزوز[6]، وأبو حفص القمودي نزيل سفاقس[7]، وأبو عبد الله محمد بن سعدون القروي المتوفى بأغمات[8]، وأيوب ابن محمد فقيه المصامدة في وقته[9]، وغيرهم كثير.

وكان أبو عمران عند علماء القيروان رمزا من رموز الثقة والعدالة، حتى أصبح مضرب المثل في ذلك، قال الإمام البرزلي في الفتاوى: «وسئل عبد الجليل الربعي فقيل له: إذا أخبرك أبو عمران الفاسي: هذا خط فلان، فهل تقطع بهذا الخط وتقول: إنه

(1) ترتيب المدارك (7 / 225 ـ 226).
(2) ترتيب المدارك (8 / 65) .
(3) ترتيب المدارك (8 / 66 ـ 67) .
(4) ترتيب المدارك (8 / 68) .
(5) ترتيب المدارك (8 / 105).
(6) ترتيب المدارك (8 / 108).
(7) ترتيب المدارك (8 / 110).
(8) ترتيب المدارك (8 / 112).
(9) ترتيب المدارك (8 / 79 ).

خط فلان من غير استناد إلى غير ما أخبرك الشيخ لثقتك بإخباره وصدقه؟ قال: فأجاب: إذا أخبرني الشيخ أنه شاهد صاحب الخط يكتبه فهو واحد عدل لا يوجب خبره العلم ....»[1].

ولا يخفى ما في هذا السؤال من دلالة تقضي أنه لو كان يستغنى في القضاء والحكم بالشاهد الواحد لكان إخبار أبي عمران وحده كافيا في إثبات الشهادة والعمل بموجبها.

## ☑ برنامجه التربوي ومشروعه السياسي:

وما إن تولى أبو عمران مهمة التدريس في القيروان عاصمة إفريقية والمغرب الأولى حتى اندمج بفكره وعمله في الخطة التي رسمها فقهاء المالكية في الغرب الإسلامي سعيا منهم إلى إقامة كيان سياسي يوحد مناطقه ضمن برنامج تربوي واحد ينبثق عن عقائد أهل السنة والجماعة، ويقوم على أساس المذهب المالكي المعتمد، وقد تبلورت هذه الخطة سريعا، وتدرج بها الفقهاء نحو التنفيذ ابتداء من ظهور الفقيه سحنون بن سعيد(ت240هـ) صاحب المدونة الكبرى في فقه المذهب وقاضي إفريقية كلها والقيروان، وقد استطاع سحنون أن يطوي المراحل، وأن يوحد المنطقة تحت لواء العقيدة والمذهب، وأن يبسط سلطان المدرسة المالكية على المؤسسات القضائية والتعليمية والدينية بوجه عام تحت إشراف القضاء الشرعي الذي أصبح مقصورا على المالكية، وفي هذا الصدد يذكر العلامة محمد الطاهر بن عاشور في كتابه "أليس الصبح بقريب" أن سحنونا سرعان ما وجه نظره إلى مراقبة التعليم، فعزل شيوخ الصفرية

(1) فتاوى البرزلي (4/ 79)، ومثله في المعيار المعرب (10/ 196).

والإباضية من الخوارج عن تعليم الصبيان، لأنهم يبثونهم عقائد تخالف السنة، فكان سحنون القيم على المصالح العامة يومئذ»[1].

وإلى جانب هذا فقد أملى سحنون رسالة "آداب المعلمين"[2] على ولده محمد حدد له فيها أصول منهجه وبرنامجه التربوي والتعليمي، وأصبحت هذه الرسالة دستورا تربويا للمعلمين، ثم حذا حذوه أئمة الفقهاء فألف ابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ) الذي كان يسمى بمالك الصغير ـ رسالته الفقهية المشهورة بطلب من المؤدب محرز ابن خلف التونسي ليجعلها مادة علمية لكتّابه، وهو كتّاب نموذجي كان يشرف عليه محرز كما أشار إلى ذلك ابن أبي زيد في مقدمة رسالته الفقهية حين خاطبه بقوله: «أما بعد ـ أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه ـ فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة، مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك للولدان، كما تعلمهم حروف القرآن، ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته، وتحمد عاقبته، فأجبتك إلى ذلك، لما رجوته لنفسي ولك من ثواب مَن علّم دين الله»[3].

وهذه المقدمة وحدها كافية في الدلالة على مقدار تهمم الفقهاء من أمثال ابن أبي زيد بقضية التعليم الأولي، وما تحتاج إليه الناشئة من رعاية عقائدها ومبادئ دينها.

وقد ألف ابن أبي زيد مجموعة من الرسائل التوجيهية، كلها تصب في هذا الاتجاه، فمنها رسالة فيمن تؤخذ عنه قراءة القرآن، ورسالة طالب العلم، ورسالة إلى أهل

---

(1) أليس الصبح بقريب (ص64).

(2) طبعت هذه الرسالة منفردة كما طبعت ضمن كتاب التربية في الإسلام بتحقيق الدكتور أحمد الأهواني ونشرتها له دار المعارف المصرية بتقديم شيخ الأزهر مصطفى عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ ماي ـ (1967م).

(3) مقدمة رسالة ابن أبي زيد (ص7 ـ 9 )، ومعالم الإيمان (3 / 111) .

سجلماسة في تلاوة القرآن[1]، وتدل النقول المستفيضة التي نقلها عنه الونشريسي في المعيار على مبلغ عنايته بهذا الشأن[2].

ثم ألف تلميذه الشيخ أبو الحسن القابسي (ت403هـ) "الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المتعلمين"[3]، فأفاض في ما يعرف في زمننا باسم "التربية العامة"، كما اهتم بقضايا التعليم بالأجرة، وبما يعرض بين المعلمين وآباء التلاميذ، كما ناقش مدى إجبارية التعليم في الكتاب، ومسؤولية الدولة عن التربية والتعليم[4].

ثم كان رابعَ فرسان هذه الحلبة وخاتـمتَهم أبو عمران الفاسي الذي استوعب هذا المشروع أتمّ الاستيعاب، واستكمل البحث في جوانبه، كما رسم الخطة لوضعه موضع التنفيذ، ثم استطاع أخيرا أن يترجمه إلى مشروع سياسي، وأهم ما ظهر به أبو عمران في هذه المرحلة هو: القول بإجبارية التعليم وإلزاميته.

ففي كتاب "الأحكام" من تأليفه نجده يقول في معرض سؤال: «وسئلت عن المعلم إذا شارطه وجوه الناس أو القاضي ليعلم أولادهم الكتاب بشيء معلوم، في بلد ليس فيه سلطان، وفي بلد السائبة، فلم يتطوع من كان في ثغر من الثغور ـ ممن يرى أنه مرابط ـ من ذات نفسه لتعليم ولده حتى أخذه الناس كرها، وهل يجبر على ذلك؟ وهل يسوغ للمعلم أخذ أجر من أهل البلد ومن امتنع من إدخال ولده الحضار؟ وهل تجوز شهادة من امتنع من تعليم ولده من أهل البلد وأهل الرباط؟

---

(1) انظر هذه الرسائل مع باقي مؤلفاته في ترتيب المدارك (6 / 218).

(2) انظر المعيار المجلد الثامن (ص238 ـ 239ثلاث مرات)، (239 ـ 240 .(مرتين)، (ص241 ثلاث مرات)، (ص242 ـ 243 ـ 244 ـ 245، ثلاث مرات)، (ص246).

(3) نشرت ضمن كتاب التربية في الإسلام للدكتور أحمد فؤاد الأهواني ابتداء من (ص367)، كما نشرت مفردة باسم الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين.

(4) الرسالة المفصلة ضمن كتاب التربية في الإسلام (ص291 ـ 292).

فأجاب أبو عمران: إن ما ذكرتَ من أمر الحضار إذا اتفق عليه أهل الموضع وشارطوا معلما، وتعاقدوا معه، يلزم من كان في الموضع إدخال ولده الحضار، فمن امتنع من ذلك فليكلم، وليهدد بالضرب إن كان في موضع فيه سلطان، فإن أبى أن يُدخله بعد ذلك فليُجبر، ويؤخذ منه ما ينوبه من جملة الشرط جبرا، فإن كانت عندهم القدرة عليه، فليطرد من ذلك الموضع، لأنه هدم ركنا من أركان الدين، فمن امتنع من إدخال ولده المكتب والتعليم، فقد عصى الله ورسوله؛ لأن فرائض الله تعالى لازمة للمسلمين كلهم، وأما ما ذكرت من أمر المرابط الذي سكن الرباط، ويمتنع من إدخال ولده المكتب، فليس بمرابط، إنما هو استفزه الشيطان وأغواه، وينبغي لأهل الموضع أن يكلموه، فإن أبى وتمادى على ذلك يطرد من الرباط، ويؤدب أدبا موجعا، وتسقط بذلك شهادته»[1].

وقد ذكر نحوا من هذا أيضا في كتاب التعليق على المدونة، وهو من مصادر الإمام الشوشاوي في كتاب الفوائد، كما نقل عنه الونشريسي في المعيار نقولا كثيرة، قال الشوشاوي في الفوائد الجميلة: «وأما من الذي يعقد الحضار من أهل الموضع؟ فقال أبو عمران الفاسي في التعليق: الذي يعقد الحضار هو السلطان أو القاضي أو جماعة من الناس، فإذا عقدوه فالشرط لازم لجميع أهل الموضع، وينكَّل بمن امتنع من تسليم ولده إلى المكتب، ويُجبر على ما ينوبه من أجرة المعلم، ومن أبى طُرد ونُفي إن قُدر عليه، لهدمه ركنا من أركان الدين، ولا تجوز شهادته، ويؤدب أدبا وجيعا»[2].

ولا شك أن هذا من أبي عمران فقه جديد نظر فيه إلى المقاصد الإسلامية الكبرى، لا إلى المقصد الخاص بتعليم طفل واحد: أيجبر ولي أمره عليه أم لا، فقد كان سحنون

---

(1) كتاب الأحكام لأبي عمران الفاسي (ق45) (مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش تحت رقم (547).
(2) الفوائد الجميلة (ص291 ـ 292).

يرىٰ أن ولي الصبي لا يجبر إذا كان فقير الحال قال: ولو ظهر علىٰ أحد أنه ترك أن يعلم ولده القرآن تهاونا بذلك لجُهّل وقبِّح ونُقص حاله.

وبنحو ذلك أجاب ابن أبي زيد عن سؤال: هل يكره الرجل علىٰ إحضار ولده للكتّاب أم لا؟ فقال: لا يكره علىٰ ذلك(1).

إلا أن الفرق فيما يبدو كبير بين من ترك أن يدخل ولده الكُتّاب، وبين من امتنع من ذلك، ولذلك فأبو عمران قد ناقش موضوع إقامة الحضار من الأساس، فرأىٰ أن إقامته واجبة ولازمة، وأن الشرط يلزم جميع أهل الموضع، بقطع النظر عن كونهم آباء صبيان أم لا، وأن من امتنع من ذلك يجبر ويطرد وينفىٰ إن قدر عليه، لهدمه ركنا من أركان الإسلام كما تقدم(2).

---

(1) نقله الشوشاوي في الفوائد الجميلة (ص292).

(2) ومن جملة ما اعتنى به أبو عمران تحديد مواقيت التعليم وأيام العطل وأصل مشروعية عطلة يومي الخميس والجمعة، وقد نظم كلامه في ذلك العلامة محمد بن عبد العزيز الأندلسي نزيل آسفي المعروف بـ «كرضيلو» وبـ«ابن عزوز» فقال في أرجوزته نكتة المعلمين:

واجلس لهم بعد صلاة الصبح ... إلى الضحى العالي وزد في النصح
ومن صلاة الظهر والعصر كفى ... وسرِّحنْهم سائر اليوم وفا
وإثر كَتْب اللوح قل بالثبت ... يوم الخميس لصباح السبت
قد سنَّ ذلك أبو حفص عمر ... فمن أماتها فلا شك افتقر
كما دعا به، ومن أحياها ... يكون في الأمة من أغناها
وسرِّحنْهم يوم عيد الفطر ... وبعده يومين ثم النحر
سرِّحهمُ في يومه وبعده ... أربعةً فهكذا قد حدَّه
شيخ المشايخ أبو عمرانا ... جوزي عنا الخير والإحسانا

انظر الأرجوزة بتمامها في كتابنا "حياة الكتاب وأدبيات المحضرة": (1/ 388 ـ 393).

وقد انبثق عن هذا البرنامج التربوي المشترك بين فقهاء القيروان ذلك المشروع السياسي الذي يرجع الفضل في التخطيط له ووضعه موضع التنفيذ إلى أبي عمران، هذا المشروع الذي ابتدأ من حلقته الدراسية بالقيروان، ثم انتهى بقيام دولة عظمى، هي دولة المرابطين، وتكلل أخيرا بقيام الوحدة بين المغرب والأندلس ابتداء من جهاد عبد الله بن ياسين الجزولي، وانتهاء إلى ظهور يوسف بن تاشفين اللمتوني المرابطي. وتفاصيل ذلك مذكورة في كتب التاريخ لا يتسع لها المقام ههنا.

وقد اعتاد المؤرخون أن يربطوا ما بين قيام هذه الدولة، وبين رحلة يحيى بن إبراهيم الكدالي إلى الحج، والتقائه في عودته منها بالقيروان بأبي عمران الفاسي، وحضوره في دروسه العلمية، وطلبه منه إيفاد مبعوث معه من طلبته، يقرئهم القرآن، ويدرس لهم العلم، ويفقههم في دينهم[1]، فعرض ذلك على طلبته، فلم يجد عند أحد منهم استجابة لذلك، فاكتفى بكتابة كتاب أرسله معه إلى تلميذه الفقيه وجّاج بن زلو اللمطي، المقيم ببلد نفّيس من أرض المصامدة بالمغرب، فوصل إليه بالكتاب، فعرض وجّاج الأمر على طلبته، فانتدب لذلك عبد الله بن ياسين الجزولي، وخرج مع يحيى إلى مواطن قومه "كدالة" بصحراء الملثمين، وعلى ذلك درجت عامة المصادر التاريخية[2].

وهذه الرواية في نظرنا لا تضع هذا الحدث الكبير في موقعه الصحيح، بل تكاد تجعله حدثا عابرا لا أهمية له، والواقع أنه منعرج خطير عظيم الأهمية في سياق هذا المشروع الذي رأيناه قد انبثق في صورته المبكرة، فكان عبارة عن منهاج تربوي

---

(1) الأنيس المطرب لروض القرطاس لابن أبي زرع (ص123).

(2) ينظر في ذلك الأنيس المطرب بأرض القرطاس (ص122ـ 133)، و الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (ص19ـ 24)، والاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري الجزء الثاني(ص5 ـ 17)، ومفاخر البربر (ص144 ـ 148).

وبرنامج عملي رأينا حلقاته الأولى عند فقهاء القيروان: سحنون وابن أبي زيد والقابسي، وههنا نراه قد تجسد في واقعه السياسي نظاما متكاملا من جميع النواحي.

وتدلنا بعض الإشارات القيمة التي وقفنا عليها مما يتصل بهذا الحدث على أن المبادرة إنما جاءت من أبي عمران، لا من زعيم "كدالة"، وأنه هو الذي عرف من الحوار الذي دار بينهما أنها فرصة نادرة، طالما انتظرها ليتمكن من وضع مشروعه السياسي موضع التنفيذ، بدعم من هذه القبائل الصنهاجية التي وجد عند أميرها قبولا واستعدادا، وكان يستهدف من ذلك ثلاثة أمور:

- **أولها**: نشر العلم الشرعي ودعوة القرآن الكريم في تلك الأصقاع النائية.
- **وثانيها**: توحيد أرجاء المغرب الكبير، ووصلها بعمقها الصحراوي.
- **وثالثها**: التصدي لقبيلة برغواطة ذات العقائد الوثنية المنحرفة المنبثة في بلاد تامسنا وشمال المغرب، وشاهدُنا على هذا إحدى الإشارات الفريدة التي نجدها عند إسماعيل بن الأحمر في كتابه "بيوتات فاس الكبرى" حيث قال في حديثه عن أبي عمران الفاسي: «وهو الذي ندب يحيى بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي إلى قتال الطغاة من أهل المغرب، وجهاد أهل برغواطة من السوس الذين تقدم ذكرهم»(1).

فقوله في هذا النص: «وهو الذي ندب يحيى بن إبراهيم»، تنصيصٌ على أنه هو صاحب المبادرة، وبالتالي فهو المخطط الأول لبرنامج الدولة المرابطية التي مهّدت لقيام الدولة المغربية، وأنشأت ذلك الاتحاد الجهوي الكبير بين أقطار المغرب والأندلس الذي استمر مئات السنين(2).

---

(1) بيوتات فاس الكبرى (ص44- 45)، رقم الترجمة (48)، وانظر كتاب الجامعة اليوسفية بمراكش في تسعمائة سنة لمحمد بن عثمان المراكشي (ص13 - 23).

(2) ينظر في ذلك: أبو عمران الغفجومي أول مفكر في تأسيس دولة المرابطين بقلم الأستاذ عبد القادر زمامة: مجلة البينة السنة الأولى العدد 3 محرم (1382)- يونيو (1962م) (ص 65 - 72).

ونضيف إلى هذا ما جاء في رواية ثانية تذكر: «أن أبا عمران اقترح لهذه المهمة ابن أخيه عمر، مما يظهر استجابته للإسهام في إخراج المشروع الصنهاجي المرابطي إلى الوجود، غير أن تراجع عمر في آخر لحظة دفع أبا عمران إلى اقتراح اسم فقيه نفّيس بالمغرب الأقصى وجّاج بن زلو اللمطي، الذي رشح بدوره لهذا الأمر عبد الله بن ياسين»[1].

وقد تقدمنا إلى هذا الملحظ الأستاذ عبد الله كنون في الجزء الذي خصصه لأبي عمران الفاسي من سلسلة "ذكريات مشاهير رجال المغرب"، فقال في صدر ترجمة أبي عمران: «هذا اسم من ألمع الأسماء في تاريخ المغرب العلمي والسياسي على السواء، فصاحبه من أعلام الفقه والحديث والدراسات الإسلامية العليا، وهو كذلك من رجال الإصلاح والتوجيه والمشاركة في الأحداث العامة، حتى إن له يدا في قيام دولة المرابطين وصبغتها الدينية المعروفة»[2].

وإذن فهذا المشروع هو مشروع أبي عمران الفاسي قلبا وقالبا، وتخطيطا وتنفيذا، وهذه في نظرنا أعظم منقبة تذكر لأبي عمران، وأقل ما لها من الدلالة: أنه من خلالها تنعكس شخصية ذلك الفقيه الملهم، صاحب الرؤية المستقبلية البعيدة، التي استطاعت أن تستقرئ من واقع الأمة ومواطن ضعفها، مكامن القوة والمناعة في بنيانها، لتُقيم عليها نظرتها الحضارية النافذة وراء ستور الغيب، ومنهاجها الرشيد في التخطيط والعمل والتنفيذ .

---

(1) معلمة المغرب (18 / 6184) بقلم عبد الله بن المليح.

(2) ذكريات مشاهير رجال المغرب ـ أبو عمران الفاسي (ص 5) .

## ☑ مناقب أبي عمران:

ولعله بعد كل ما قدمناه، فإن الحديث عن مناقب أبي عمران مستقلة عن مجاري حياته العلمية والعملية ـ كما يقتضيه العنوان المقترح لهذا المحور ـ يبدو حينئذ كاللغو من القول، وذلك إذا كان المقصود من المناقب ما هو متبادِر إلى الأذهان عادة من معناها الشعبي المرتبط بالكرامات والخوارق، كالإخبار بالمغيَّبات، والطيران في الهواء، والمشي على الماء، وطيّ المسافات، ونحو ذلك مما نجد له ذكرا في طبقات الأولياء، وحلية أبي نعيم، وكتاب التشوّف، وإذن، فنحن مع أبي عمران لسنا بإزاء مناقب له من هذا النوع، وإنما مناقبه ما رأيناه من شغفه بالعلم وطلبه وكتابته، وتعليمه ونشره، والفتوى في أحكامه، والاحتساب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند مقتضياته، والنظرة المستقبلية في ضوء ما يعانيه من واقع أمته، هذا مع أنه مترجم عند ابن الزيات التادلي في كتاب التشوّف باعتباره عالما ورعا، زاهدا في الحطام، مقبلا على صلاح نفسه وإصلاح غيره.

ولعل الذين خالطوا أبا عمران من طلبته وغيرهم من عامة الناس، كانوا أكثر معرفة بنوع كراماته ومناقبه، ومن ثم فقد كان تقديرهم له وتوقيرهم لشخصه نابعا من إحساس وجداني بالمحبة له، والانبهار بعلمه وصلاحه، وبفقهه وحسن هديه، وتواضعه لقاصديه، وصلابته في الحق كما رأينا أمثلة لها من مواقفه.

حدث الأديب أبو علي بن رشيق القيرواني في كتابه "أنموذج الزمان في شعراء القيروان" في رسم عبد الله بن رشيق القيرواني قال: «اجتمعت به بالمحمدية سنة إحدى وأربعمائة، وهو حديث السّن لم يجز العشرين، وليس قِبَله كثير من هذه

الصناعة ثم ارتحل، فأوطن القيروان سنين عديدة بأهله، واختص بالشيخ أبي عمران الفقيه، ففيه أكثر شعره»[1].

فما الذي جعل شابا مثل عبد الله بن رشيق يختص في شعره بالشيخ أبي عمران؟ لا شك أنه كان يرى فيه المثل الأعلى في الشمائل الحميدة والشيم الفريدة، إذ لم يكن صاحب دنيا فيطمع في دنياه، ولا صاحب سلطان يحب أن يصل عنده إلى منصب أو جاه، ولذلك قيل:

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا ❊❊❊ حتى يروا عنده آثار إحسان

وأخرى لعلها كانت مما كان يحبب أبا عمران للناس، تلك هي شعبيته وسماحته التي امتاز فيها بما كان عليه من خفض الجناح لطلبته والعامة على حد سواء، فكانوا يهرعون إليه فيما يشكل عليهم، فيصدرون عن حكمه لا يشكون في أنه الحق والصواب.

ومن أمثلة ذلك هذه القصة التي حكاها غير واحد في ترجمته ذكرها ابن السّماك وعياض والدباغ وغيرهم، واللفظ لعياض قال: «وجرت بالقيروان مسألة في الكفار: هل يعرفون الله أم لا؟ فوقع فيها تنازع عظيم بين العلماء، فتجاوز ذلك إلى العامة، وكثر التمادي بينهم فيها، حتى كاد يقوم بعضهم إلى بعض في الأسواق، ويخرجون عن حد الاعتدال إلى القتال، وكان ألهجهم بذلك رجل مؤدب يركب حماره، ويذهب من واحد إلى آخر، فلا يترك متكلما ولا فقيها إلا سأله فيها وناظره، فقال قائل: لو ذهبتم إلى أبي عمران لشفانا من هذه المسألة، فقام إليه أهل السوق بجماعتهم حتى أتوا باب داره، واستأذنوا عليه، فأذن لهم، فقالوا له: أصلحك الله، أنت تعلم أن

---

(1) أنموذج الزمان (ص 155)، ترجمة (39).

العامة إذا حدثت بها حادثة إنما تفزَع إلى علمائها، وهذه المسألة قد جرى فيها ما بلغك، وما لنا في الأسواق شغل إلا الكلام فيها، فقال لهم أبو عمران: إن أنصتُّم وأحسنتم الاستماع أجبتكم بما عندي، قالوا له: ما نحب منك إلا جوابا بيِّنا على مقدار أفهامنا، فقال لهم: بالله التوفيق، وقال لا يكلمني منكم إلا واحد، ويسمع الباقون، فقصد واحدا منهم فقال له: أرأيت لو لقيت رجلا فقلت له: أتعرف أبا عمران الفاسي؟ فقال: أعرفه، فقلت: صفه لي، قال: هو رجل يبيع البقل والحنطة والزيت في سوق ابن هشام، ويسكن صبرة، أكان يعرفني؟ قال: لا، قال: فلو لقيت آخر فقلت: أتعرف الشيخ أبا عمران؟ قال: نعم، فقلت: صفه لي؟ فقال: نعم، رجل يدرُس العلم ويدرِّسه، ويفتي الناس، ويسكن بقرب السماط، أكان يعرفني؟ قال: نعم، قال: والأول ما كان يعرفني؟ قال: لا. قال لهم الشيخ: كذلك الكافر إذا قال: إن لمعبوده صاحبةً وولدا، وإنه جسم، وعَبَدَ مَن هذه صفته، فلم يعرف الله، ولم يصفه بصفته، ولم يقصد بالعبادة إلا من هذه صفته، وهو بخلاف المؤمن الذي يقول: إن معبوده الله الأحد، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، فهذا قد عرف الله ووصفه بصفاته وقصد بعبادته من يستحق الربوبية - سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا، فقامت الجماعة وقالوا: جازاك الله خيرا من عالم، فقد شفيت ما بنفوسنا، ودعوا له، ولم يخوضوا في المسألة بعد هذا المجلس»[1].

ومن مظاهر حذق أبي عمران وشعبيته، ما جاء عند الدباغ في معالم الإيمان قال: «قال أبو العباس الجعفري الأندلسي: قال رجل بالقيروان: أنا خير البرية فهمَّتْ به العامة، ثم لم يلبث أن حُمِل إلى دار أبي عمران، فقيل ذلك له، فقال له أبو عمران: أنت مؤمن؟ قال: نعم، قال: أتصلي وتصوم وتفعل الخير؟ قال: نعم، قال: اذهب بسلام،

(1) ترتيب المدارك (7/ 249 - 251)، ومعالم الإيمان (3 / 162).

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ فانفضّ الناس عنه»[1].

ومن مظاهر ما رُزقه أبو عمران من محبة الناس له، ما ذكره أبو علي بن رشيق القيرواني في "أنموذج الزمان" في رسم الشاعر محمد بن علي الطُّبْني قال: «كتب ـ يعني الطبني ـ إلىٰ أبي عمران الفاسي حين عزم أبو عمران علىٰ السفر إلىٰ الحج:

أقول والنفس حزنىٰ منك والهةٌ ... مما تحاذره من فقد محياها
ومن له ربُ ما ترضاه من عمل ... بَرٌّ وإن كان في بقياه بقياها
فإن تُقِم لم يرُعْني أيُّ مرتحِل ... وإن تُرد سفرا ودعتك الله
نفسي لما ترتضيه غير كارهة ... وحسبها أن ما أرضاك أرضاها

فأجابه أبو عمران:

حيّاك ربك من خلّ أخي ثقة ... وصان نفسك بالتكريم مولاها
من كل غم وشأن لا يوافقها ... فهو العليم بما يبديه مولاها
ولا أضاع لها الرحمن حُرقتها ... وقولها: إن تسر ودعتك الله
فا لله يجمعنا من بعد أوبتنا ... ويؤتنا من وجوه البر أسماها[2]

فهذه القطعة والجواب عنها يصوران لنا هذه الألفة والآصرة المتينة التي كانت تشد أبا عمران بأفئدة الناس وتغرس حبه منها في الأعماق.

(1) معالم الإيمان (3/ 162).
(2) أنموذج الزمان (ص323)، رقم (91).

## ☑ هيبته ورباطة جأشه:

وفي مقابل هذا اللين وخفض الجناح لأهل التقوىٰ والإيمـان، كان مع غيرهم علىٰ عكس ذلك صلبا في دين الله، لا يخاف فيه لومة لائم، وقد كان وهو طالب في جملة أصحاب شيخه أبي الحسن القابسي حين اعتدىٰ نصراني، وهو ابن أخ لخاصة باديس ابن حبوس صاحب القيروان علىٰ صبية شريفة، فلما سمعت بذلك العامة، عدوا عليه فقتلوه، فعظم ذلك علىٰ باديس، فأرسل قائد عسكره إلىٰ المهدية وأمره بإطلاق السيف في أهلها، فبلغ ذلك الشيخ أبا الحسن القابسي، فدخل المحراب، وأقبل علىٰ الدعاء، ووصل الخبر إلىٰ باديس، فبعث إلىٰ الشيخ، فجمع الشيخ أصحابه الفقهاء وفيهم أبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو عمران الفاسي، وأبو القاسم ابن الكاتب وجماعة منهم، وأملىٰ عليهم رسالة ضمّنها قـوله: كيف يـحلّ لمن يعتقد الإسلام أن يقوم في دم كـافر اغتصب صبية من سلالة المصطفىٰ ﷺ وقال لأصحابه: إذا وصلتم إلىٰ الجامع فليقرأها واحد منكم علىٰ المنبر، ففعلوا ذلك، فجعل قواد الجيش يقول بعضهم لبعض: والله ما السلطان إلا هذا الشيخ»[1].

كان أبو الحسن القابسي ينمّي في أبي عمـران ورفاقـه روح الإحـساس بمـسؤولية الفقيه العالم، وما تقتضيه من رباطة الجأش، وروح النجدة، وصلابة في الحق للانتصار للمستضعفين، والتصدي لغشم الغاشمين، وقد وصفه أبـو زيـد بـن الـدباغ في هـذا الصدد بقوله: «وكانت له هيبة، قال أبو عبد الله محمـد بـن عـلي المـازَري عـن بعـض شيوخه: إن المعز بن باديس بعث ابن عطاء اليهـودي طبيبـه وخاصـته إلىٰ أبي عمـران يستفتيه في مسألة، فلمـا دخل علىٰ الشيخ في داره ظنه الشيخ بعض رجال الدولة، إلىٰ أن قال بعض الحاضرين: أكرمك الله ـ إنه من خيار أهل ملته، فقال الشيخ وما ملته؟

(1) ترتيب المدارك (7 / 97 ـ 98)، معالم الإيمان (3 / 140 ـ 141).

فقيل: هذا ابن عطاء اليهودي، فغضب أبو عمران، وقال لابن عطاء: أما علمت أن داري كمسجدي، فكيف اجترأت على دخولها؟ وأمره بالخروج، فخرج وهو يرعد، وكان غير معلم، فأمر الشيخ بصبغ طرف عمامته لشهرته، وقال: انصرف إلى مرسلك، فقل له: يبعث إليّ برجل من المسلمين يأخذ جواب مسألته، فإني لأستحيي أن أحمِّلك أسماء الله وحكما من أحكامه، فلما دخل اليهودي على المعز ذكر له القضية، وقال: والله يا سيدي ما ظننت أن بإفريقية ملكا غيرك إلا يومي هذا، ولقد وقفت بين يديك في حال غضبك الشديد، فما أدركني من الفزع، ولا أصابني من الرعب ما أصابني في يومي هذا، فقال له المعز: إنما فعلت ذلك لأريك عز الإسلام وهيبة علماء المسلمين، وما ألبسهم الله من شعار الأولياء، لعلك تسلم»[1].

## ☑ عفافه وتقواه وأخبار وفاته:

ولعل مثل أبي عمران إنما يُحتاج إلى الحديث عن عفته وتقواه على سبيل الاقتداء به والتلذذ بذكراه، والأمر فيه كما قال أبو الطيب المتنبي في ممدوحه:

أساميا لم تزده معرفة *** وإنما لذة ذكرناها

وقد شهد أبو عمران لنفسه ـ وهو يودع هذه الدنيا ـ شهادة الواثق ببراءته من المعاصي التي يتعاطاها غيره بالاسترسال في اتباع الشهوات، فذكروا في خبر موته أنه «لما حضرت أبا عمران الوفاة جعلت زوجته تمرغ خديها على قدميه، فقال لها: مرِّغي أو لا تمرغي، أما والله إني ما مشيت بهما إلى معصية قط»[2].

---

(1) معالم الإيمان (3 / 161).

(2) معالم الإيمان (3 / 163).

قال أبو زيد الدباغ: لما أفاق أبو عمران من إغمائه في مرضه الذي مات فيه سمع أم ولده عيسىٰ تبكي وتقول: وا شماتة أعداء عيسىٰ بعيسىٰ، فقال لها: قولي لأعداء عيسىٰ لا يموتوا، وجعلت تمرّغ خديها علىٰ رجليه فقال لها ما تقدم[1].

«قال: وحضر الصلاة عليه جميع أهل القيروان والسلطان في موكبه، وتجاذبت العامة نعشه وهو علىٰ رؤوسهم، إلىٰ أن كسروا تحته نعشين من بكرة إلىٰ قرب الزوال، فصلىٰ عليه أبو بكر عتيق السوسي الفقيه الزاهد بوصيته له بذلك، ودفن بداره، وقبره مشهور بالقيروان يتبرك به»[2].

ويظهر أن تقاليد طلبة القيروان كانت جارية علىٰ ملازمة قبور المشايخ بعد مواراتهم التراب؛ لإهداء ختمات من القرآن لأرواحهم؛ وللتعزي ببقاء الأيام والليالي العديدة عند مدافنهم، تسلية لنفوسهم، وتخفيفا لوطأة المصاب عليهم.

ويعلم الله كم أقام تلامذة أبي عمران علىٰ قبره جريا علىٰ هذا التقليد، يقرأون عليه القرآن، ويروحون عن أنفسهم ما وجدوه من آلام فقده، ولقد ذكروا أن أبا عمران نفسه «لما مات شيخه أبو الحسن القابسي مكث علىٰ قبره سنة كاملة، وأن أبا الحسن القابسي وقف له في المنام وقال له: نوّرت قبري، نور الله قبرك، أُدخل القيروان وفَقِّه أهلها في الدين»[3].

إلا أننا نحسب أن الشيخ أبا عمران قد رجع عن هذا العمل فيما بعد سدا للذريعة، ودفعا للمفسدة، حتىٰ لا تتجاوز به العامّة إلىٰ اتخاذ القبر وثنا يعبد، وتقدم

(1) نقله الدباغ عن المازري في شرح الجوزقي انظر معالم الإيمان (3 / 163).

(2) معالم الإيمان (3/ 631)، وينظر في صلاة تلميذه عتيق السوسي عليه ما جاء في قصته مع المعز بن باديس بسبب صلاته على أبي عمران: معالم الإيمان (3/ 181).

(3) معالم الإيمان (3 / 164).

له النذور، ويقوّي نظرنا في ذلك ما ذكره الونشريسي في المعيار قال: «سئل الإمام النظّار أبو إسحاق الشاطبي ـ صاحب الموافقات ـ عن تصبيح القبر سبعة أيام بعد الدفن، هل يثبت ما نقل فيه أنه كان معمولا به عند السلف، وهل تجوز قراءة القرآن على القبور بالجمع كما يفعله الناس اليوم؟

فأجاب: إن تَصبيح القبر هو المسمى في القديم المأتم، قال الطرطوشي: فأما المآتم فممنوعة بإجماع العلماء، والمأتم: هو الاجتماع في المصيبة، وهي بدعة منكرة، ولم ينقل فيه شيء، وكذلك ما بعده من الاجتماع في الثاني والثالث والرابع والسابع والشهر والسنة: فهو طامة، قال الشاطبي: وقد بلغني عن الشيخ أبي عمران الفاسي ـ وكان من أئمة المسلمين ـ أن بعض أصحابه حضر صبيحة، فهجره شهرين وبعض الثالث، حتى استعان الرجل عليه، فقبله وراجعه، قال: وأظن أنه استتابه أن لا يعود، وقد حكى عياض الرخصة فيه عن أهل القيروان، والله أعلم بصحة ما نقله عياض»[1].

ولعل الشيخ أبا عمران بوصيته بأن يُدفن في داره قد تحرى بذلك سد الذريعة على العوام الذين أسرفوا في التعلق بالقبور وإقامة المشاهد عليها، فأحب أن يحول دون ذلك، لكن أمل الشيخ لم يتحقق، فهاهو الشيخ أبو زيد الدباغ يحكي من تعلق العامة بقبره ما يقضي منه العجب، حيث قال: «فجرت العادة في زمننا وقبله، أكثر ما يؤتى له بالزيت، فيستعمل على قبره منه، ويباع ما يفضل منه بالدنانير، وتصلح منه داره المدفون فيها، ويأخذ منه الواقف في الموضع، ومن يكن في سفر وخاف من أخذ الأعراب له، يعِدُ الشيخ أبا عمران بصاع من الزيت أو أقل أو أكثر فيسلمه الله ﷻ، ويوصل ذلك لداره، فيفرغه في جرة مُعدة لذلك وينصرف، وكذلك إن مرض إنسان، أو مرض له ولد، أو ما أشبه ذلك، وكل من نزلت به نازلة بالقيروان: من سرقة ماله

(1) المعيار المعرب (1 / 327 ـ 328).

وغير ذلك، يكثر من الزيارة للشيخ والدعاء عند قبره، يفرج الله عنه ما نزل به في غالب الحال»[1].

وبلغ التعلق بأبي عمران مداه في رغبة بعض الأعيان أن يدفنوا بجواره في داره، ومن هؤلاء قاضي القيروان أبو يحيى بن أبي بكر الفاسي.

جاء في تاريخ قضاة القيروان لمحمد الجودي القيرواني أنه توفي بها سنة واحد وستين وسبعمائة هجرية قال: «ودفن بدار الشيخ أبي عمران الفاسي قبالة الداخل من باب الدار بقصد التبرك، وليس هو من ذريته»[2].

(1) معالم الإيمان (3 / 164).

(2) تاريخ قضاة القيروان لمحمد الجودي القيرواني (ص: 121).

## ☑ خاتمـــة

وهكذا أبت العامة إلا أن يذكروا أبا عمران دون الوقوف عند ما تبيحه الشريعة من أجل العبرة والذكرىٰ، لكن أهل العلم عرفوا لأبي عمران منزلته في العلم والفضل، فأنزلوه منازل أكابر العلماء، وأماثل النبلاء، وما زالوا بعد ألف عام من وفاته في إحياء ذكراه، يُكِنّون له المزيد من الإكبار والتبجيل، ويجدون في أنفاسه التي تضمّنتها أخباره وآثاره ما يبعث في نفوسهم كل معاني الجلالة والجزالة والشعور بالفحولة العلمية، التي ضرب فيها هذا الفقيه الجليل أسمىٰ الأمثلة وأرفعها وأروعها، كما سوف يظل في ذاكرتنا التاريخية «رجل إصلاح وسياسة وتدبير، إلىٰ كونه رجل علم وفقه وحديث، وقد نجح في كلتا المهمتين، وقرطس الهدف في كل من الغرضين، وقلما تجد عالما ذا شهرة وذكر عال إلا وهو ممن أرصد علمه لتغيير ما بقومه وإصلاح أحوالهم، ولم يقتصر علىٰ العلم دون العمل»[1].

فأسنىٰ الله سبحانه في الصالحات ذكرىٰ أبي عمران، وأغدق عليه شآبيب الرحمة والرضوان، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والسلام عليكم ورحمة الله.

ooooo

(1) أبو عمران الفاسي ضمن سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب (ص 14 ـ 15).

# قائمة المصادر والمراجع


- أبو عمران الفاسي والعلاقات العلمية بين المغرب وتونس، للأستاذ محمد الفاسي، مجلة المناهل العدد 17/ 1980م.
- الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة ط 4/ 1421 هـ ـ 2001م.
- الأحكام، لأبي عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي الفاسي، مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش برقم: (547).
- أزهار الرياض في أخبار عياض، لشهاب الدين أحمد المقّري التلمساني، تحقيق د.عبد السلام الهرّاس وسعيد أحمد أعراب، طبع اللجنة المشتركة بين الحكومة المغربية ودولة الإمارات العربية/ 1400هـ ـ 1980م.
- الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت: ط.16/ يناير 2005.
- أعلام مالقة لأبي عبد الله بن عسكر وأبي بكر بن خميس، تحقيق الدكتور عبد الله المرابط الترغي، دار الأمان للنشر والتوزيع، طبعة دار الغرب الإسلامي.
- أعلام المغرب العربي، لعبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية ـ الرباط: 1399هـ ـ 1979م.
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي، نشر دار الكتاب العربي ـ بيروت: 1412 ـ 1983م.
- الإكمال لابن ماكولا، دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة: ط2/ 1993م.

- أليس الصبح بقريب، التعليم العربي الإسلامي، تأليف الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، نشر دار سحنون للنشر والتوزيع - دار السلام - تونس، ط 2 / 1428هـ - 2007م.
- الاستبصار في عجائب الأمصار، لمؤلف موحدي من القرن السادس، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية - الدار البيضاء: 1985م.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للشيخ أبي العباس أحمد بن خالد الناصري، تحقيق الأستاذين جعفر الناصري واحمد الناصري، مطبعة دار الكتاب/ 1954.
- الأنساب للسمعاني، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، مؤسسة الكتب الثقافية: ط1/ 1408 هـ - 1988م.
- أنموذج الزمان في شعراء القيروان لأبي علي حسن بن رشيق القيرواني، تحقيق وجمع محمد العربي المطوي وبشير البكّوش، نشر دار الغرب الإسلامي، ط1/ 1411هـ - 1991م.
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، لعلي بن أبي زرع الفاسي، نشر دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط/ 1972.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، لأحمد بن يحيى الضبي، دار الكتاب العربي/ 1967م.
- بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من الأحكام، لمحمد بن مسعود الطرنباطي، تحقيق عبد الله رمضاني - الطبعة الأولى منشورات

مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث ـ الرابطة المحمدية للعلماء ـ الرباط/ 1429 هـ ـ 2008م.

- ☑ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذاري، دارالثقافة، بيروت ـ لبنان ط 2/ 1400هـ ـ 1980م.
- ☑ البينة، مجلة تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية، السنة الأولى ـ العدد الثالث/ محرم 1382هـ ـ يونيو 1962م.
- ☑ بيوتات فاس الكبرى، لإسماعيل ابن الأحمر، نشر دار المنصور للطباعة والوراقة ـ الرباط/ 1972.
- ☑ تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت 1385هـ ـ 1965م.
- ☑ تاريخ الإسلام للذهبي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، نشر دار الكتاب العربي.
- ☑ تاريخ ابن خلدون باعتناء أبي صهيب الكرمي، نشر بيت الأفكار الدولية ـ عمان ـ الأردن.
- ☑ تاريخ قضاة القيروان، للشيخ محمد الجودي القيرواني، نشر وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة).
- ☑ تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد علي النجار، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- ☑ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، تحقيق سعيد أحمد أعراب،

نـشر وزارة الأوقـاف والـشؤون الإسـلامية، مطبعـة فـضالة المحمديـة، المغرب/ 1426هـ ـ 1981م.

☑ التشوّف إلى رجال التصوّف لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التـادلي يعـرف بـابن الزيـات، تحقيـق الأسـتاذ أحمـد توفيـق، منـشورات كليـة الآداب/ الرباط.

☑ التقييد على التهذيب، لأبي الحسن الصغير علي بـن محمـد بـن عبـد الحـق الزرويلي، دراسة وتحقيق طارق محفوظ محمد الصحاري، رسالة جامعيـة بكلية الآداب بفاس، السنة الجامعية: 1426 هـ ـ 2008م.

☑ التكملة لكتاب الصلة، للحافظ أبي عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي ابن الأبّار، تحقيق الدكتور عبد السلام الهرّاس، نـشر دار المعرفـة ـ الـدار البيضاء ـ المغرب.

☑ الجامعة اليوسفية بمراكش في تسعمـائة سنة، للعلامة محمـد بـن عثمـان المراكشي: 1356 هـ ـ 1937م.

☑ جذوة الاقتباس في ذكر من حل مـن الأعـلام مدينـة فـاس، لأحمـد بـن القاضي المكناسي، نشر دار المنصور للطباعة والوراقة ـ الرباط 1973م.

☑ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، لأبي محمد ابن أبي نـصر فتّـوح بـن عبدالله الأزدي الحميدي الأندلسي، تحقيق الـدكتورة روحيـة عبـدالرحمن السويفي، منشورات محمد علي بيـضون، دار الكتـب العلميـة ـ بـيروت: 1417 هـ ـ 1997م.

☑ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لمؤلف أندلسي مـن أهـل القـرن الثامن عشر، تحقيق الدكتور سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة: نشر دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1/ 1399 هـ ـ 1979م.

- حياة الكتّاب وأدبيات المحضرة، د. عبد الهادي حميتو، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط/ 1424هـ ـ 2006م.
- دليل مؤرخ المغرب الأقصى، للأستاذ عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المُرّي، دار الفكر للطباعة والنشر، ط 1 / 1418 هـ ـ 1997م.
- دعوة الحق: إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، السنة 21 العدد 3 / رجب 1400هـ ـ يونيو 1980م .
- دور المدرسة القيروانية ضمن مدارس الفقهية في المعيار للونشريسي، للدكتور جاسم العبودي، دعوة الحق العدد 331، السنة 38 أكتوبر 1997م.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لبرهان الدين إبراهيم ابن فرحون، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت .
- ذكر بعض مشاهير أهل فاس في القديم، لعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي الفهري، تحقيق وتعليق الدكتور خالد بن أحمد الصقلي ط 1 ـ 1428 ـ 2007 ـ فاس.
- ذكريات مشاهير رجال المغرب ـ أبو عمران الفاسي ـ للأستاذ عبدالله كنون، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ـ بيروت.
- الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد بن شريفة، دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان.
- الروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق د.إحسان عباس، مكتبة لبنان ـ بيروت، ط 2/ 1984م.

☑ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، لأبي بكر عبد الله ابن محمد المالكي، تحقيق بشير الكوش ومحمد العربي المطوي، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان/ 1401هـ ـ 1981م.

☑ سير أعلام النبلاء، للحافظ شمس الدين الذهبي.

☑ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تأليف محمد بن محمد مخلوف، نشر دار الكتاب العربي، بيروت لبنان/ 1429هـ ـ 2008م.

☑ شرف الطالب في أسنى المطالب لأحمد بن قنفذ، تحقيق محمد حجّي ـ ضمن ألف سنة من الوفيات ـ مطبوعات دار المغرب ـ الرباط/ 1396هـ ـ 1976م.

☑ الصلة في تاريخ الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، للحافظ أبي القاسم خلف بن بشكوال، تحقيق عزت العطار الحسيني، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 2/ 1414هـ ـ 1994م.

☑ طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي، تحقيق د.إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت ـ لبنان: 1970م.

☑ العبر في خبر من غبر للحافظ الذهبي، تحقيق وضبط: أبو هاجر محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية ـ بيروت .

☑ غاية النهاية في طبقات القرّاء، للحافظ أبي الخير محمد بن محمد الجزري، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ط.1/ 1352هـ ـ 1933م.

☑ الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط1 / 1402 هـ ـ 1982م .

☑ فتاوى البُرْزلي، تحقيق محمد الهيلة، طبعة دار الغرب الإسلامي، ط1/ 2004 م.

☑ فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عبيد البكري، تحقيق د.إحسان عباس، ط 1/ 1971م، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت.

☑ فهرسة ما رواه عن شيوخه أبو بكر بن خير اللمتوني الإشبيلي، دار الآفاق الجديدة، بيروت ـ لبنان .

☑ فهرس الفهارس، لعبد الحي الكتّاني، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان.

☑ الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة، لأبي علي حسين بن علي بن طلحة الرجراجي الشوشاوي، تحقيق إدريس عزوزي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط/ 1409هـ ـ 1989م.

☑ القاموس المحيط والقابوس الوسيط في اللغة تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيرازي (ت817هـ)، ومعه حاشية العلامة نصر الهوريني، المطبعة الحسينية المصرية- القاهرة، الطبعة الثانية سنة 1344هـ.

☑ اللباب في تهذيب الأنساب، لأبي الحسن علي بن أبي كرم الجزري، دار صادر، بيروت/ 1400هـ ـ 1980م.

☑ المحاضرات للحسن اليوسي، إعداد محمد حجي، مطبوعات دار المغرب، الرباط/ 1396هـ ـ 1976م .

☑ مختصر ترتيب المدارك لابن حمادو البرنسي، تحت الطبع بالرابطة المحمدية للعلماء ـ الرباط.

☑ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، لعفيف الدين عبدالله بن أسعد اليافعي، نشر مؤسسة الأعظمي، ط 2 / 1390 هـ ـ 1970م ـ بيروت ـ لبنان.

- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدباغ، نشر المكتبة العتيقة بتونس ومكتبة الخانجي بمصر.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشي، تقديم الدكتور ممدوح حقّي، نشر دار الكتاب ـ الدار البيضاء.
- معجم البلدان، لياقوت الحموي، طبعة دار صادر، بيروت ـ لبنان.
- معجم الشعراء، لأبي عبد الله المرزباني، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2 / 1402هـ ـ 1982م.
- معرفة القرّاء الكبار على الطبقات والأعصار، للعلامة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق بشار جرّار وصاحبيه، نشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ 1404هـ.
- معلمة المغرب، إنتاج الهيئة المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا: 1424هـ ـ 2003م.
- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط: 1401 هـ ـ 1981م.
- المعين في طبقات المحدثين، للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق الدكتور همّام عبد الرحيم سعيد، دار الفرقان ـ عمّان ـ الأردن .
- المغرب، تأليف الأستاذ الصديق بن العربي، طبع دار الغرب الإسلامي دار الثقافة، ط 3/ 1404هـ ـ 1984م.
- مفاخر البربر لمؤلف مجهول، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، نشر دار أبي رقراق للطباعة والنشر ـ الرباط.

- مقدمة ابن خلدون، طبعة دار الفكر، توزيع دار الرشاد الحديثة ـ الدار البيضاء ـ المغرب، وطبعة دار القلم ـ بيروت 5/ 1984م.
- مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح المدونة، لأبي الحسن علي بن سعيد الركراكي، تحقيق أبي الفضل الدمياطي، نشر مركز التراث الثقافي المغربي ودار ابن حزم، ط1/ 1428هـ ـ 2007م.
- الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، للأستاذ عبد العزيز بن عبدالله، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية/ 1396هـ 1976م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، تحقيق إبراهيم علي طرخان، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة ، 1392هـ ـ 1972م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، لأحمد بن محمد المقّري التلمساني، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر ط 1 / 1406هـ ـ 1986م.